

ثلاثيّة سيرة الجمر - ٣ -
غد الكابوس
رواية
ابتهاال الغزّيّ



الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الإشراف العام:
اللجنة العليا لموسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
مركز بيّنة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
()

البريد الإلكتروني:
www.baina.com

العراق: كربلاء المقدسة
الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

• ————— •
التصميم والإخراج الفني:
م. زهير محمد حسين الجبوري

ثلاثية سيرة الجمر

— ٣ —

غد الكابوس

رواية

ابتهاال الغزّي

الفصل الأول

(١)

على عاداتها، كانت سارة تغازل بالمغزل... وتلاعب خيوط
النسيج بيديها المتعبتين... تحثّ وقت بيتها كي يمشي ويترك بلادته،
فهو ثقيل السير... وئيد الحركة... تريد أن تنتهي من عمرها بعجلة،
لكن العجلة عصية عليها، تغريها سارة بالدعاء... بالتسريح...
بالبكاء، بكلّ ما يعرف العباد من وسائل الجذب والاستقطاب ؛
لكن قلب العجلة من حجر، هي تريدها أن تقترب، فقط أن تقترب
؛ كي تمسك بتلابيبها، وتعضّ عليها بأسنانها؛ من أجل أن تترك ضيق
المعسكر إلى فسحة الله، فالله وحده الذي يعلم مقدار حزنها، وحجم
كَمَدِها، وما تحمله من ثقل المآسي والآلام؛ لذا فهو وحده الذي
سيجزئها على حزنها فرحًا، وعن كمدِها راحة وسرورًا، وعن مآسِها
وآلامها دعةً يغبطها عليها الخلق...

وهي على هذه الحالة من الهدوء القاتل، تسمع أزيز الباب
يزجر بحنينٍ غيرٍ مسبوق... سمعته يغازلها هذه المرة لا يزعجها،

ففي كل مرة يزجر بصخب مزعج؛ ليضع أمامها ريجًا مغبرة، أو قطّة سوداء منكّرة تتطير منها نساء الأرض، أو ضيفًا ثقيلًا لا يضيف لها سوى حزن من قصص الماضي أو ذكرى مؤلمة تجعلها تنام على بكاء ساخن... تيقّنت هذه المرة أنّ الأمر مختلف، فهذه المرة سيدفع الباب واحد من فرحتين قد أقبلتا؛

إمّا العجلة كي يفرج الله عليها العناء...

أو سليم الذي بقي لها من إرث تلعفر الطيب...

تنهض بقوة مختلفة هذه المرة وكأن أفعى مخيفة قد عضّتها؛ كي تلحق للإمساك بفرحتها القادمة من دون ميعاد؛ فلربما استجابت لها الفرحة من أثر الدعاء... أو التسبيح... أو الرجاء بدموع ساخنة... تختصر الخطوات بهمة عالية... وما بين زجرة الباب، وحثّ الخطى؛ تتبدّى ملامح سليم أمامها... لم تُدرك حينها أنّها ذات الحزن الطويل، وصاحبة الصمت الممتدّ حدّ الصحارى القاحلة... لم تُدرك لحظئذ إلاّ وهي طاووس يتغنّج أمام الناظرين... استجمعت ما بقي لها من أنوثة كي تنثرها أمام فتى أحلامها الذي شقّ عباب الخطر ومثّل أمامها كالصقر الجارح، الجارح بفتوته لا وحشيته...

تستقبل سارة زوجها المستعد للفرح (سليم) استقبال الفاتحين...

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

زغاريد المنتصرين نثرتها على رأس وجوده... أهازيج الأمراء وزعتها على جنبات حضوره... كل من في المعسكر تجمّع حول بيت العريسين القديمين الجديدين... فعلى غير سابق دعوة فاح السرور من مخدع سارة... ذلك المخدع الذي كان كبقية مخادع معسكر النازحين ينعم بالحزن... الوجوم... السكون البليد الذي يبطّي عقارب الساعات ؛ وكأنها هامدة على إشارات الأرقام التي فيها... لا تتحرك إلاّ بثقل عديم الشعور بمن حوله ممّن يترقّب سيره كي يستريح...

جميع المتجمهرين اصطفّوا بعشوائية تامة حول بيت سارة، هم ينسبون البيت إليها لا إلى زوجها ؛ لأنّ زوجها سليم غائب على طول الأيام ولا يأتي إلاّ لماما... أو يسمّون البيت هكذا على طريقة أغلب العراقيين ؛ فهم يميلون إلى تسميات من قبيل... بيت أم علي... بيت أم حسين... وعلى السمت نفسه كان أهالي المعسكر يسمون بيت سليم بيت سارة...

على غير عادة سارة... تغلق الباب على زوجها... من دون أن تراعي للمتجمهرين بالألا... فهي لم تشعر بأحد سوى سليم... هو سليم وحده الذي كانت تطارد قدومه عيناها... لم ينزعج المتجمهرون من غلق سارة لباها... بل اتفقوا على غير اتفاق أنّ العريسين أحقّ

باللقاء... فانفرط عقد جهمرتهم... فساخوا كقالب ثلج تحت حرارة الشمس نحو بيوتهم... كما جاءوا من دون دعوة... انسحبوا بسلام من دون وداع كذلك...

كلما يخلو المكان من ضجيج المتجمهرين... تتملى سارة من وجود سليم في بيتها المعتاد على السكون... الوحدة... الوجوم... لكن الله فرّج عليها اليوم بفوحان الفرح الحقيقي؛ فليس أصدق من فرحة حضور الأحبة من شيء...

بقي الحال على ما هو عليه لوقت غير قصير... نظرات تتحدّث بكلّ لغات الأرض التي خلقها الله للكائنات... ضجيج قاتل في مخدع سارة وسليم ولكن من دون صوت... يتصايحان بصمت... يتغازلان بسكوت... أفرغ كلّ واحد منهما ما في قلبه من شجن وشوق وهيام من دون أن يتلفظ أحدهما بحرف واحد... فكل كلمات المعجم نطقوها بهمس غير مسموع... كلّ شيء في مخدع سارة غائب إلا النجوى... النجوى المسموعة بأذن المحبين فقط...

لم يتعب سليم من وقفته أمام سارة، على الرغم من تعب المضني... لم تملّ سارة من التحديق بوجه سليم، على الرغم من مللها المستمر من وجوم مخدعها... فالمشاعر تختلف في محضر الحبّ... كلّ ما يبدو سوادًا

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

يزهر ببياض ثلجي في محضره ؛ لأنّ الحبّ من روح القدس؛ يطهّر
النفوس، ويجعل الناس كملائكة لا تعرف سوى الوداد...

(٢)

ليلة واحدة هي كلّ ما لدى سليم من رصيد الأزواج... أنفقه
 لسارة وغادر المعسكر؛ تاركًا خلفه إرثًا من السرور العميم... فبه لم
 يعد مخدع سارة ذا وجوم... تبدّل كلّ شيء هذه المرة... ملّمت سارة
 خيوط النسيج جميعها وما غزلته من ملابس غريبة بأكمام كثيرة، أو
 التي من دون أكمام، وأودعتها كيسًا كبيرًا، ركنته على قارعة الطريق
 كالنفايات العديمة... وطعنت عتبة بابها بالمغزل ودقّته بحجرة
 استطاعت حملها... استمرت بالدق على رأس المغزل حتى غار
 في التراب... فأرض المعسكر رملية من دون إسفلت؛ لذا تجدها
 متحرّكة لا تستقر على حال. حتى النازحين اكتسبوا من صفات
 الرمل صفاتهم؛ فصاروا يتحركون ولا يستقرّون على أرض.. هم
 كالرمل.. أو ربما الرمال صارت مثلهم..

عادت النظارة - نوعًا ما - إلى وجه سارة، حتى الحدود على
 صفحتي وجهها دلّكته دماء الراحة... وكأنّ تفاحتين حمراوتين

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

زرعهما سليم على خديها قبل غيابه...

كل شيء تغير في سارة ومخدعها... فلأول مرة ومنذ أن حلت خفافيش داعش بسواداتهم الكالحة تلبس سارة ثوباً ملوناً زاهياً، هي تراه جديداً، على الرغم من أنّ ملامح البلى بادية عليه؛ لأنّ الفرح يغيّر المدارك، فكل ما لا يراه الآخرون يراه المُحبّ، وكلّ ما يراه الآخرون مختلفاً يراه المُحبّ بنظرة أخرى... فهو يعيش في عالم لا يعرف سوى الودّ والسلام والوئام... لا وجود للأذية والجبروت والندالة في عالم المحبّين، عالمهم كلّ سعادة ولا غلّ فيه...

كانت سارة تردد وصايا سليم كناسك يردد أوراده التي تقرّبها من الربّ... ترددها كي لا تنسى أي حرف منها... صارت وصايا سارة مغزها الجديد، وحروف الوصايا خيوط النسيج التي تُحك منها طريق حياتها القادمة... كل جملة من جمل الوصايا كانت تراها سارة دستوراً لا يجوز لها أن تحيد عنه... فوصايا الحبيب قانون لراحة من يُحبّ... إن سار على هديها نجا وكان من المهتدين...

كانت تقلّب الأوراق التي أودعها عندها كل ساعة ستين مرّة، صار تقليب الأوراق دقائق ساعاتها، ما يفتأ أن يتقلب معها مزاجها، فمع كل ورقة ممّا أودعه عندها ضحكة وابتسامة وفرحة مختلفة، هو

لم يُودعها كنزًا أو ثروة أو مالا، هو أودعها كومة أوراق متهرئة، حتى أن بعضها من أغلفة الصناديق، وأوراق السكائر... لم تكن رائحتهن زاكية ؛ بسبب الخزن، أو مصدر الورق، لكنها كانت تشمهن كعود المسك والعنبر؛ لأنهن من تراث الحبيب...

هاتفه النقال الذي استبدل به هاتفها، كان أحلى صفقة في حياتها ؛ لأنها ستمسك بالهاتف طال مكوثه في كف حبيبها سليم، لأمس غلافه اللدائني بشرته سنوات، حتى صارت بصمته عليه... كانت سارة تغازل كَفَر الهاتف كأنها تغازل صاحبه عن قرب... رحل سليم لكنه بقي حاضرًا بهاتفه النقال... تقلّب الصور المودعة فيه كل حين... تعيش أجواءها كما لو أنها هناك حيث رمال السواثر، بل بدأت تسمع أزيز الرصاص كزقزقة عصافير صباحية تعطر أجواء الفجر، كلما تنزّ زقزقة تنفتح صفحة من إشراقة الفجر في الكون...

بقيت سارة مع أوراق سليم هاتفه في شغف غامر... وسليم في طريقه إلى ثكنته الأثيرة كي يلملم أثاثه العسكري من إطلاقات وقنابل يدوية وما خفّ حمله وثقلت إصابته على العدو... هو الآخر حمل معه من بيت سارة ما لذّ وطاب من الحميمية والألفة كي تعينه على طريقه المتخيم بالرصاص والدماء والقتل...

الفصل الثاني

(١)

لم تَنَم سارة ليلتها السابقة ؛ لأنّها جهّزت أغراضها، شَغَلها جمع الأغراض الليل كلّهُ ؛ لا لأنّها كثيرة، ولكن لأنّ ثقل محبتها كبير، فليس لديها سوى بعض الخرق الموسومة مجازًا بالملايس، وبعض الكتب التي تعشق قراءتها ؛ نسخة قديمة من القرآن الكريم ورثتها من أمها ملاية الحي، وما بقي من صفحات الصحيفة السجادية التي أهداها لها سليم أيام خطوبتها، وبعض الخطب من كتاب نهج البلاغة الذي أهدته إليها الحاجة أم محمد، وكتاب المغزلية الذي اشترته من مكتبة في بوّابة جامعة الموصل ؛ لأنّه يتحدّث عن تاريخ هذه المدينة العريقة في تلغفر... وبعض الأوراق والكتيبات الصغيرة، وربما أشياء أخرى تحتاجها النساء... لكن ما شغلها الليل كلّهُ كيف ستحفظ أمانة سليم... الأوراق والأقراص الليزرية التي أودعها إياها تراها كنزًا ثمينًا وثقيلاً، لا ثقل بوزنه أو حملة، بل بأهميته ومكانته... مرة تضعهن في (صُرّة) خاصّة؛ فتخشى عليهن من البلل،

ومرة تضعهن في صندوق محكمة ؛ فتحشى عليهن من التلف، ومرة تضعهن في صندوق حديدي صغير ورثته عن أبيها كان يجبى فيها أمواله الشحيحة... أخيراً استقرت على الصندوق ؛ لأنه لا يرشح إليه الماء، ولا تنفذ إليه القوارض...

مع ساعات الفجر الأولى كانت سارة جاهزة على الموعد الذي قطعه لها سليم ؛ إذ أخبرها أن قوافل النازحين ستذهب إلى محافظات العراق الوسطى والجنوبية ؛ لأنّ الموعد الذي كان جميع الشرفاء من العراقيين ومن يحبهم ينتظرونه قد حان... فبعد يومين ستهجم القوّات الأمنية من الجيش العراقي والشرطة الاتحادية وفصائل الحشد الشعبي على أوكار خفافيش داعش ؛ كي تطهر أرض البلاد من براثنهم...

وأخبرها أيضاً أن السيارة التي ستنقل حصة النازحين إلى كربلاء المقدسة ستكون موشاة بوشاحات خضر... فاصعدي فيها وكوني في ضيافة العتبة الحسينية المقدسة التي هيأت مخيمات للنازحين... أول مرّة تسمع من سليم كلمة (مخيم) وتؤمن بأن ما سيكون مأوى لهم هو مخيم وليس معسكراً؛ إذ اعتاد سليم كما اعتاد البقية على تسمية مأوى النازحين بالمعسكر؛ لأنّ العسكرية قابعة فيه روحاً وملاحاً وحياءً،

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

أما في كربلاء المقدّسة فسيكون مخيماً ؛ لا لشرفية المخيم ؛ بل لأنّه من خيام العقيلة زينب عليها السلام ؛ من أجل ذلك كانت سارة فرحة بالنزوح إلى كربلاء كي تكون في خيام العقيلة... تشاركها العزاء، وتشاطرها الثواب...

تسمع سارة مزامير السيارات... ضجيج أهالي المعسكر وهم يتصايحون لمغادرة المعسكر والالتحاق بالسيارات... تخرج بهدوء مهيب ؛ وكأنها على موعد مع تكريم في حفل فنيّ كبير، تحمل ما استجمعته ليلة أمس، وكان على رأسها حصراً الصندوق الذي يحمل أوراق سليم؛ لم ترغب بوضعه بيديها ؛ لأنّ قداسة حبّها لمن ائتمنها أثرت أن يكون موضع حملها الرأس...

كلّ النازحين في صخب وضجيج، الّا سارة في مشيء وئيد، كانت تعلم أنّ خيم العقيلة لن يخذلها أبداً؛ سيوفّر لها مقعداً في السيارات ذات الوساحات الخضراء، وسيسهّل بلوغها كعبة العشق كربلاء من دون عناء أو تعب، وبلا خوف أو وجل... فمخيم العقيلة بكفالة كفيّلها العبّاس عليه السلام، وسيكون لواؤه في صدر موكب السيارات الزاحفة إليه؛ ليحميه من كيد الأعداء وشر الأشرار...

بعد بحث غير مُظنٍ وجدت السيارات ذات الأوشحة

الخضراء، صعدت مع الصاعدين إليها... جلست في صدر كراسيها
وكأنّ الكفيل خصصه لها... جلست وهي ممسكة بتلابيب الفرحة
والراحة، لم تتركهما للحظة وهي سارحة بملاح سليم التي لم تفارقها
منذ أمس... وبمجرد أن تحرّكت السيارات حتى ألقت بالتحية على
سليم عن بُعد... وأجابته على وصيته الأولى... :

ها قد ركبت بالسيارات ذات الوشاح الأخضر يا حبيبي،
وأعدك إذا جاءني مولود ذكر سأسمّيه على اسم صديقك سلام أو
حميد... وإن جاء مولودان سيكون اسمهما على اسمي صديقك
سلام وحميد... كي يكون وصف ذريّتك (سلام حميد) كحياتك التي
كانت ذات سلام حميد...

(٢)

جموع من خدام العتبتين الحسينية والعباسية في استقبال السيارات ذات الوشاح الأخضر... كان منظر حفاوتهم، وهيبة منظرهم، بمثابة غيث المطر الذي يغسل عن الأشجار التعب؛ إذ غسل عن النازحين الوافدين من توهم كل تعب الطريق... ومخاوف الدرب... أحسّ النازحون على رأسهم سارة أنهم في لحظة من شموخ غريب وكأنّ الإمام الحسين وأخيه الكافل عليهما السلام في انتظارهم... كان مسيل دموعهم جواباً لجميل ترحابهم...

تصف سارة مشاعر النازحين ومشاعرهما... لم نجد ثقلاً من كثرة عددنا... ولم نلمس تدمراً من صعوبة مزاج بعضنا... كان المستقبلون من العتبتين المقدستين كالمسيح ﷺ يمسخوا عنا جهد ما عانينا... ويرشّونا بعطر خدماتهم...

ما أشعرنا مجدداً بأننا بشر؛ بعد رحلة من التشرد في معسكرات النازحين، هو اعتذار مثلي المتولين الشرعيين للعتبتين الحسينية

والعباسية من أن المكان الذي سيأوونا إليه بسيط، ويعدوننا قريباً بأن تكون مخيماتنا عبارة عن مساكن عصرية...

خالط بعضنا الشك من أن المكان سيكون سيء الخدمات، وسنعود إلى ماضي تعاستنا في معسكرات النازحين الشمالية... لكننا حينما دخلنا على المخيمات وجدناها أماكن نظيفة ومخدومة بالشكل الذي يليق بالنازحين... فتبددت جميع مخاوف المتذبذبين الذين لم تكن سارة منهم... فهي واثقة منذ ليلة قدوم سليم الأخيرة أنها ستكون في ضيافة العقيلة، وفعلاً استشعرت ذلك حال ركوبها السيارات ذات الوشاح الأخضر...

كانت سارة شريكة لعجوز من عجائز تلعفر الوحيدات في خيمة من مخيمات النازحين في كربلاء... أول شيء فعلته أن أمنت صندوق أمانة سليم في خزانة الخيمة المحكم... ومن ثم ساعدت العجوز على نقل حاجياتها... ورتبت أشياءها وطمأنت على وضعها سليماً، وتركتها تغسل من جسدها المتعب آثار السفر، فالطريق من تلعفر إلى كربلاء ليس قصيراً في العادة، فكيف شكله في وضع مضطرب تربكه خفافيش داعش...

بعد مدة من الوقت الكافي لترتيب العوائل وضعها في خيامهم...

ثلاثيَّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

بدأت أبواب الخيام تطرق بابًا بابًا؛ ليستلموا طعامهم بعلب بلاستيكية نظيفة، حينما فتحتها سارة وجدها طعامًا ساخنًا وزاكيًا... جلست سارة وشريكها العجوز في باحة الخيمة العصرية... ليأكلا طعامهم الساخن... كانتا تأكلان وتظران إلى بعضيهما وفي فم كل واحد منهما كلام... بعد حين بادرت العجوزُ سارةَ بالحوار... :

- هل تعتقدين أن إيصال الطعام إلينا كلَّ يوم سيكون هكذا؟ أو هذا اليوم فقط لأننا وصلنا من تونا؟...

- لا أعتقد يا حاجة أنهم سيقصّرون في الحالتين، سواء منحونا الطعام مباشرة، أو منحونا المؤن ونحن نطبخ، وإن كنت أعتقد أنهم سيمنحونا الطعام يوميًا؛ ألا تتذكرين في الزيارة الأربعينية كيف تطبخ المواكب لملايين الزائرين لأيام وليالٍ من دون كلل... نعم... فمائدة الحسين عليه السلام لا تنتهي مدى الدهر... فكيف ونحن ضيوفه؟...

- إذن لا تقلقي يا حاجة... وحتى إذا منحونا المؤن فأنا سأطبخ لكلّينا...

- طمّنيني يا ابنتي...

تضحك سارة من جواب العجوز الذي لم يخلُ من صدق

ومزاح... فطريقة نطقها كانت تثير الابتسامة الحميدة على شفثيها...
استمرت بالأكل حتى قاربنا الانتهاء... وساد جو من الحميمية
بينهما؛ بحيث شجع العجوز أن تسأل سارة عن أمر شغل بالها،
لكنها كانت مترددة في بداية الأمر؛ لأنهما غير متعارفتين، فخشيت
أن تنهرها إن سألتها، بحكم أن ما ستسأله من خصوصيات سارة...
نظرت العجوز إلى سارة وبادرتها بالسؤال ... :

- يا ابنتي، في رأسي سؤال يدور منذ أن صعدنا السيارة في تلعفر،
لكني خشيت من ردة فعلك، فلعلك لا تقبلين بسؤالي وتعدّينه
تدخلًا بشؤونك الخاصة...

- أبدأ يا حاجة تفضلي...

- منذ صعودنا السيارة في تلعفر حتى نزولنا في كربلاء والصندوق
لم يفارق رأسك، فما سرّ هذا الصندوق ...؟

تنفض سارة يدها من الأكل... تنظر إلى شريكها العجوز...
تبدو ملامح الخشية على وجه العجوز لئلا تكون قد أزعجتها...
تبتسم سارة في وجهها كي تبدد ملامح الخشية منها... وتجيها بهدوء
تام... :

- يا حاجة في هذا الصندوق كنز ثمين ومقدّس على قلبي...

ثلاثية سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

- كنز ثمين ومقدّس؟...
- لا يذهب بالك بعيد، فليس فيه مال ولا ذهب ولا جواهر...
- إذن ما فيه؟ فقد شوقتيني لمعرفة مستودعه ؛ إن لم يكن جوابك يزعجك...
- أبداً، لا إزعاج في الأمر... في الصندوق أوراق ثمينة أودعها زوجي عندي أمانة لأسلمها إلى صديق له في الخارج إن استشهد إن شاء الله...
- تتمنين الشهادة لزوجك؟...
- يا حاجة، الفقد ثقيل، ولكن تمنى الخير للحبيب واجب...
والشهادة أغلى شيء على قلب زوجي...
- تستمر العجوز بالسؤال، وتبادلها سارة بالأجوبة، فحديث النساء لا ينتهي، بخاصة إن كانتا في حالة راحة واسترخاء...

الفصل الثالث

(١)

سحابٌ مركومٌ من الرصاص يُلبَّدُ سماءَ الموصل... السموات
سبع طبقات، والأرضون سبع دركات، وبوابات النفاذ إلى الموصل
سبع أيضًا، الخلق ينبني من جديد... كان الصدى أزيزَ رصاص، الجوُّ
محمَّرٌ... مصفَّرٌ... مزرَّقٌ بالرصاص، استبدل الكون تغريد البلابل،
وزقزقة العصافير، وهديل الحمام بأزيز الرصاص، وفرقات القنابر
والقنابل؛ هكذا كان يرى الساكنون نواحي الموصل وأقصيتها معالم
الكون في الليلتين اللتين شرَّعتَ فيهما القوَّات العراقية العسكرية من
الجيش، والحشد الشعبي، والشرطة الاتحادية تحرَّكها باتجاه الموصل...
انزوى الغمُّ والهَمُّ بعيدًا، ولم يكن في ذلك اليوم إلا السُرور المخبوء
المترجرج في صدور الأشراف، وآباء المغدورين، وأمَّهات المخطوفين؛
كلٌّ واحد منهم كان يرجو شفاءً بثَّار، أو لقاءً مفقودٍ قد يعثر عليه في
غيابات الخفافيش الداعشية... وفي ضمن أولئك المسرورين؛ المترجم
شريف العلي الذي كان يتسمَّع الأخبار من الموصل، وزحف الحشد

الشَّعبي حصراً... جميع مَنْ حوَّله في الفريق الأُممي كان يرى ما يراه الأمريكيان والغربيُّون من أنَّ الحشد الشعبي عبارة عن مليشيات غير نظاميَّة خارجة على القانون، أو عصابات إرهابيَّة... هو الذي كان يدافع عنهم في الفريق، أو الفرق التي يشافهها ويحاورها فريقه في زياراته الغربيَّة المكوَّنة بالدول الأوربيَّة أو سواها...

كان يحدثهم عن مجتمع غير مكتشف؛ اسمُه الشَّعب العراقيّ المظلوم... غطَّت عليه فقايع النظام الدكتاتوريَّة البعثي البائد بحركاته البهلوانية الفارغة التي ضيَّعت نفسها، وضيَّعت الشَّعب معها، كان قائدهم الأرعن (صدّام)، أو كما يسمّيه مريدوه (القائد الضرورة)... وكذلك غطَّت على الشَّعب المظلوم مؤامرات الدَّول الاستعماريَّة التي تطمع في ثرواته وخيراته... ولعلَّ أحد أكبر أسباب عدم قناعة أكثر أعضاء الفريق الأُممي الذي يعمل معهم المترجم شريف، أو الفرق التي يحاورها بدفوعاته : أنَّ أغلب أعضاء الفريق من تلك الدول الاستعماريَّة، وليسوا منها فحسب، بل من المنتفعين من افتراءات قياداتهم الحكوميَّة ؛ إذ لهم الامتيازات الفارهة... وغيرها من المخصَّصات التي لا يشمُّ رائحة جزء منها الكثير من السَّاكنين في أرجاء المعمورة الأخرى...

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

كان شريف متسمّرًا أمام شاشات الفضائيات قبل انطلاق القوّات العسكريّة العراقيّة نحو الموصل وإبّانها... لم يكن يؤمن بنقول الوكالات الإخباريّة تمام الإيذان... فهو يعلم أنّ - توابل - الإعلام المنحاز تغيّر طعم الحقيقة بنكهاتها... لها أن تجعل الفاتر باردًا... والبارد ساخناً...

جلس يتتبع الفضائيات؛ ولا سيّما الإخبارية منها، وفي أثناء بحثه ظهر على الشاشة فضائيّة البي بي سي... يعلن المذيع فيها بصوته الحماسيّ على الملأ من طريق ضيفه المحلّل العسكريّ... المحلّل يجيب عن سؤال المذيع في النشرة الرئيسة :

- تعتمد القوّات المهاجمة في معركة الموصل على الكثافة الناريّة في تقدّمها إلى المناطق المستهدفة؛ وذلك من أجل استعادة السيطرة على المدينة التي تعدّ العاصمة المحليّة لمحافظة نينوى شماليّ البلاد... ووفقًا لخارطة الانتشار العسكريّ ثمة أكثر من خمسين ألف مقاتل من القوّات والتّشكيلات النظاميّة وشبه النظاميّة والمليشيات يتقدّمون بحذر نحو الموصل من سبعة محاور، ويجمعون تحت غرفة عمليّات مشتركة، بعضويّة ضباط من الجيش العراقيّ، وقوّات «البشمركة» ومستشارين أميركيّين.

يتنفض شريف على تصريح المحلل :

- قاتلك الله، لم تسمّون أذان الخلق، الحشد قوّة نظاميّة شريفة؛ لا مليشيات أيّها المتاجرون بالكلمة .

يبقى صامتاً ليس لهدوء نفسيّ، بل لاحتقان مشاعره تُجاه كلام المحلل العسكريّ على قناة ال بي بي سي، يتأوّه بشدّة ولمدّة ليست بالقصيرة..... يكرّر فعل التّدمير..... يفتح الصّوت من زرّ التّصميمات في الرّيمونت، وهو يتمتم :

- لا حيلة لي إلا الاستماع إليكم، تبّاً لمن يُجبر فيه المظلوم على تجرّع كذب الظّالمين على مضض؛ فلا وسيلة لسماع معاناته إلا باللسنة محرّفة .. هيّا استمرّ في تحريفك... ولكن أعترف أنّ بعض كلامك حقيقة... هي ستراتيجية دسّ السمّ في العسل :

يستمرّ المحلل بالحديث مجيئاً عن أسئلة المذيع :

- تنماز معركة الموصل، منذ اليوم الأوّل، بالكثافة النّارية المفرطة التي تزخّها القوّات المهاجمة قبل التّقدّم لأيّة منطقة؛ وهي التي تسمّى (ساعة الصّفر) في العرف العسكريّ؛ مستغلّة بذلك، وفرة الذّخيرة المتوافرة لديها؛ فقد حصل عليها العراق مؤخّراً بصفة مساعدات من دول عدّة؛ أبرزها الولايات المتّحدة، وإيران،

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

وروسيا.

ينهض باستياء... مخاطبًا المحلّل عبر الشّاشة :

- قاتلك الله، الذّخيرة من أمريكا... روسيا معقولة، إيران معقولة،
ولكن أمريكا!...

ينهض ليمشيّ في الغرفة كالمصاب بمغص شديد... يرجع إلى
جلسته الأولى، ويحدّق بالشّاشة؛ مستمعًا للمحلّل :

يقدر ضابط عراقيّ رفيع في غرفة عمليّات تحرير الموصل
استهلاك نحو ربع مليون طلقة ناريّة مع غروب شمس الثلاثاء،
غالبيتها لأسلحة رشّاشة متوسّطة وخفيفة، في ما تمّ استهلاك أكثر
من ألف قذيفة هاون، وأربع مئة صاروخ أرض-أرض؛ غالبيتها من
طراز «غراد»، مبيّنًا أنّ الأرقام مقدّرة وفقًا لبيانات التّجهيز لمخازن
الجيش المهيّأة قبل المعركة... فضلًا عن ذلك؛ فقد بلغ معدّل الطلّعات
الجويّة فوق الموصل وضواحيها مئة وعشرين طلعة، تقريبًا، لقوّات
التّحالف، إلى جانب إحدى وعشرين طلعة لسلاح الجوّ العراقيّ.

يغلق شريف شاشة التّلفاز... ينهض بطريقة مستاءة تنمّ عن
تذمّر... :

- لم أعد أحتمل التحريف... كثير من كلامك سليم؛ ولكن هي

- وسيلة المحرّف أن يغلفَ كذبه القليل بحقيقة كبيرة...
- يترك غرفة الجلوس... يتوجّه إلى حاسوبه... يجلس على مكتبه نصف المضاعة... ينظر إلى شاشة الحاسوب؛ وهي تشتغل ببطء :
 - تَبّاً لكِ، أسرعِي قليلاً...
 - تنهض الحاسوب... يبحث في مواقع البحث عن أخبار الحشد الشعبي... في المجلّات... في الصّحف العربية... :
 - أها... هذه صحيفة «العربي الجديد»... مؤكّد أنّها موثوقة، أو في الأقل أنّها محايدة... لأبحثَ فيها عن موضوعي...
 - نعم، هذا الخبر جديد :
- يقلّب شريف صفحات الموقع بعد أن وجد الخبر الأوّل غير مفيد... والثاني مكرور .. يتوقّف عند خبر ينقل عن ضابط عراقيّ الحقائق :

تنقل الصّحيفة عن العقيد الجبوري، من الفرقة الخامسة عشرة بالجيش العراقيّ، الذي صرّح لـ«العربي الجديد» أنّ «كثافة النيران أحد الأمور التي تميّز بها هذه المعركة. وأضاف: بالتأكيد لن تكون تلك الكثافة موجودة مع الاقتراب من المدينة، بسبب المدنيين، لكن استخدمت هذه الوفرة الناريّة في مناطق زراعيّة، وقرى خالية من

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

السَّكَّان، وحقّقنا نجاحًا سريعًا، وتمكّنا من تقليل الخسائر البشريّة في صفوف الجيش بنحوٍ كبير.

تبدو على شريف حماسة الواثق، يحدث نفسه من فرط قلقه :

- كأنّ الضابط هذا موثوق التّصريح؛ لأكمل قراءة الخبر :
- تشمل خارطة القوّات المهاجمة كلّاً من الجيش العراقيّ؛ وهو الذي يبلغ تعداد عناصره اثنين وعشرين ألف جنديّ من مختلف التّشكيلات؛ فضلاً عن الشرطة الاتّحادية، المشاركة بأربعة آلاف عنصر، وجهاز مكافحة الإرهاب بألفين وخمس مئة عنصر، وقوّات «البشمركة»، وقوامها أحد عشر ألف مقاتل، و«الحشد الشعبي» بواقع ثمانية آلاف مقاتل، في ما يشارك أبناء العشائر العربية بثلاثة آلاف مقاتل، ومليشيا «بابلون» المسيحيّة بمئة مقاتل، ومليشيا «الضّياغم» (عشيرة شمر) بثماني مئة مقاتل، على حين يبلغ تعداد القوّات أميركيّة خمس مئة وستّين بين جنديّ ومستشار، إلى جانب مئة وأربعين جنديّاً من عدّة جنسيّات يشاركون في ضمن سائر قوّات التحالف.

ينهض شريف من جلسته نهضة الممتعض ... :

- إمّا الضابط غير منضبط... أو الصّحيفة غير منضبطة... مليشيا...

- ومساعدات أمريكية... هذه مصطلحات المتزلفين...
- فلاأنهض وأحتسِ القهوة أفضل من متابعة مواقع كهذه؛ فقد صدّعت رأسي..
- تَبّاً لكم ما أكثرَ تزييفكم... نحن ما زلنا في قلب الحدث وتتلعبون بالحقائق؛ أعان الله الجيل القادم كيف يتلقّى الحقائق؛ وهو لم يشاهد الحقيقة كي يستطيع الفرز...

(٢)

بعد ساعة تقريباً من ابتعاد شريف عن الحاسوب والتلفاز...
ثارت رغبته مجدداً للمتابعة، ينهض ليواجه الحاسوب؛ ففي اعتقاده
أنّ المواقع الخبريّة الإلكترونيّة أرحم من التلفاز ؛ لأنّ الحاسوب
يُقرأ... أما التلفاز فيتحدّث... والعين أرحم على القلب من الأذن؛
لأنّ العين تمنحك فرصة لاختيار زاوية النّظر، أما الأذن فتفرض
عليك زاوية نظر الآخر، ولا مناص من قبوله على مضض...

تفتح الحاسوب شاشتها... يحدث شريف نفسه :

- لأبحث عن تخطيط داعش؛ فلربّما الحقيقة في نقل واقعهم أجلى؛
لأنّ المدلّسين يعملون على نقل واقعهم، إلا إذا احتاج واقع
داعش إلى تلميع...
- ابحث أيّها الحاسوب عن خطّة داعش للتّصدّي لتوجّهات القوّات
العسكريّة العراقيّة من محاورها السّبعة؟ هيّا ابحث بسرعة، ولكن
برّبك لا تنقلني إلى المواقع المنحازة كعادتك...

- نعم... نعم... كأنّ هذا الموقع مفيد :
- يتهياً المترجم شريف لقراءة الخبر بحماسة عالية ... :
- يتّخذ تنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش) المتحصّن داخل المدينة وضواحيها خطوطاً دفاعية كثيرة ومعقدة، يمكن إجمالها بأربعة خطوط رئيسة؛ هي:
- طيّب، وما الخطة التّحسينيّة [هكذا يحدث شريف نفسه وهو يقلّب بالخبر]...
- الحصن الأوّل: حقول الألغام، وتعدّ خطّ الدفاع الأوّل؛ إذ تقدّر بأكثر من ثمانين حقلاً، بعضها نما عليه العشب، أو اختفت؛ أي: إشارات قد تدلّ عليه؛ فقد جهّزت تلك الحقول منذ خريف العام الماضي، وتتخذ شكل دائرة تحيط بالموصل على مدى ٣٠ كم.
- قاتلكم الله، الألغام غير المؤمّنة بخرائط ستكون وبالأعلى العالم بعد انتهاء الحرب... وهي سبب لمأساة الشّعوب المستضعفة بعد انتهاء الحروب في أراضيها...
- وماذا بعد... أيّها المندسّون؟
- الحصن الثاني: عبارة عن متمرسي القنّاصة والانتحاريين؛ إذ يقدر عدد القنّاصة بنحو ثلاث مئة قنّاص، يستخدم أغلبهم

ثلاثية سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

أسلحة قنص حديثة ومتطورة حصل عليها التنظيم من مخازن الجيش العراقيّ والسوريّ في المدن التي سيطر عليها؛ وهي أميركيّة وروسية، في ما يقدر عدد الانتحاريين في هذا الخطّ بأكثر من خمس مئة مقاتل، أغلبهم من جنسيّات غير عراقية.

- يا الله .. ألغام وقناصون وانتحاريون... ماذا بعد؟
- الحصن الثالث: "يمثل الانتحاريون أكثر من ٣٠٪ من المجموع الكليّ لمقاتلي التنظيم، ما يؤثّر إلى نيّته خوض معركة استنزاف طويلة..."

- وماذا بعد؟
- أما الحصن الرابع فهو عبارة عن الجنود المعتمدين في حماية التنظيم داخليّاً؛ وهم «جنود الخلافة» كما يسمّيهم التنظيم؛ وهم يشكّلون قوام جيش التنظيم، ويرى أنّهم الحلقة الأصعب، أو الخطّ الأساسيّ الذي قد يمثل آخر فصول المعركة. أما الخطّ الأخير؛ وهو المحاولة الأخيرة للحفاظ على التنظيم؛ فهم كتائب الانغماسيّين في خطّ الدّفاع الرابع، وستكون مهمّة هذه الكتائب، في حال انهيار الخطّ الثالث، الاشتباك على طريقة حرب الشوارع، ثمّ تنفيذ عمليّات انتحارية بأحزمة ناسفة، أو سيّارات مفخخة.

- يا الله ما أخبثها من تحصينات هؤلاء جاؤوا ليدمروا في الحاليتين، في البقاء، وفي الفناء...

يكمل شريف قراءة الخبر :

- إجمالاً، يبلغ مجموع مقاتلي التنظيم، بحسب تقديرات من مصادر المقرية، ما بين ستة آلاف إلى ستة آلاف وخمس مئة مقاتل، يشكل العرب والأجانب نحو ٢٠٪ منهم، على حين يشكل العراقيون والسوريون نحو ٨٠٪، في ما يمثل الانغماسيون والانتحاريون أكثر من ٣٠٪ من المجموع الكلي لمقاتلي التنظيم، مما يؤشر إلى نيته الواضحة بتحويل القتال إلى معركة استنزاف طويلة، يسعى، بها، لتكرار تجربة معركة الفلوجة، وهي التي استهلكت من الجيش والمليشيات أكثر من سبعة آلاف قتيل وجريح قبل اقتحامها.

- إنه كيان كونيّ الشر... وماذا فعلوا غير التّحصين... [هكذا يحدث نفسه وهو يقرأ تفاصيل هذا الخبر الحماسي] ... :

- مقابل ذلك، قطع التنظيم جميع الجسور والطرق المؤدية إلى المدينة، ونصب الفخاخ والعبوات الناسفة، وأنشأ خطأً عريضاً وواسعاً من حقول الألغام على مشارف أحيائها السكنية، وجّهز خنادق النّفط الأسود للإشعال متى ما أراد؛ إذ نقل كمّيات ضخمة من

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

- النّقط من آبار البعّاج، الشّهر الماضي، لهذا الغرض.
- وماذا عن ترسانتهم ؟... [يستمرّ شريف بمحادثة نفسه بحماسة] ... :
- يملك التنظيم تشكيلة من الأسلحة الحديثة الثّقيلة والمتوسّطة، أبرزها دبابات أبرامز أميركيّة (نحو ١٠ دبابات)، ودبابات «تي ٧٢» الرّوسية (نحو ٥٠)، وعربات «هامر» الأميركيّة (١٠٠) إلى ٢٠٠ عربيّة، وعربات «هامفي» الأميركيّة (نحو ٣٠)، إضافةً إلى مئات المدافع، وعشرات المنصّات لصواريخ أرض _ أرض.... بالتّوازي مع ذلك، يمتلك التنظيم أسلحة دفاعيّة مضادّة للطّيّران والدّروع، وتشمل مضادّات أرضيّة للطّيّران، ومدافع ميدان عيار ١٢٠ ملم، وصواريخ «ستريلا»، وصواريخ «كورنيت»، وأخرى حراريّة، فضلاً عن كمّيّات كبيرة من القاذفات المحمولة على الكتف.
- يغلق شريف نافذة الخبر الذي كان يتابعه... يتأمّل قليلاً في سقف الغرفة؛ وكأنّه يبحث عن شيء على سطحه... ويتمتم مع نفسه :
- هل يُعقل أن يكون تخطيط داعش الرّباعيّ التّحصينيّ؛ هذا من

وحي فكرهم؛ وهم أشتات من شذاذ الأرض؟ .
 هل يمكن أن يكون فكرهم، وهم من السطحيين؛ بلا شهادات،
 أو خبرات، غير خبرات الدّم، وشهادات سفكها؛ أيعقل أن تكون
 سطحيّتهم منتجةً لهذه الخطوط الرباعيّة التحصينيّة؟ .
 - العقل يقول باستحالة ذلك، ولكن ما الجواب؟ مؤكد أنّ
 خلفهم مخطّطاً كبيراً... مدبراً شيطانيّاً خطراً؛ إنّها دولة أو دول
 كبرى تريد للشّرق ألاّ يستقرّ، وللعراق تحديداً أن يبقى ضعيفاً،
 ومريضاً، إذا ما قاله المهندس سليم في مذكراته حقيقة، ما قاله :
 إنّ المخطّط الاستكباريّ يريد للعراق أن يبقى مستضعفاً مفكّكاً
 كي يفيد الآخرين من ثرواته، ويستفيدون بضعفه بتوسّعاتهم
 الاستيطانيّة...

الفصل الرابع

(١)

لم يستطع شريف متابعة الأحداث طوال أسبوعين؛ بسبب انشغالاته بمرافقة الفريق الأممي العامل بمعيته؛ إذ أُوفدَ إلى مناطق ساخنةٍ ليس فيها انترنت أو صحون لالتقاط الفضائيات؛ فعاش في شبه عزلة عن العالم... وما إن عاد إلى المقر عمله الرسمي حتى عاود التواصل بشغف... وكانت حينها معركة الموصل مستمرة منذ تسعة أشهر... أما اليوم فهو التاسع عشر من شهر تموز (يوليو) من عام ٢٠١٧؛ إذ بدأت المعركة في السادس عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) السنة الفائتة (٢٠١٦ م)...

المرجع شريف العلي في هذه المدة يراقب الأحداث ما استطاع إلى ذلك سبيلاً... وكان في الأحيان التي لا يستطيع أن يراقب فيها الأحداث عن طريق التلفاز أو الانترنت يتصل بصديقه الم رابط على الثَّغور المهندس سليم... يتبادلان الأحاديث عن الثكنة ومعسكر النّازحين ساعات وساعات حتى يشبع من المعلومات أو تنفذ

تعريفات خطأ اتصاله... يمتدّ بهم الحوار من أجل أن يستمدّ منه الحقيقة التي تحاول الوكالات المأجورة... والفضائيات المتاجرة بالكلمة... إضافة نكهات توابلها عليها؛ لتغيّر طعمها...

في حوار ساخن من حوارات متابعة سير مجريات المعركة أرشد المهندس سليم صديقه المتجدّد شريف على بعض الفضائيات التي تنقل الحقيقة أو على الأقل يهّمها نقلها ذلك ما استطاعت... لكن قلبه تعلّق بفضائية كربلاء... ومنذ ذلك الحين؛ وهو يتابع هذه الفضائية؛ إضافةً إلى فضائيات أخرى تعمل على نقل الحقائق؛ مثل: العراقية، والاتّجاه، والفرات، والعهد، وآفاق وغيرها من الفضائيات التي يحترق دمها على شباب المعركة؛ فأغلبهم من الدّاعمين للقوّات الأمنية العراقية؛ ولا سيّما الحشد الشعبي...

سمع شريف بوساطة هذه الفضائيات عن أسماء فصائل عراقية شريفة تعمل على تحرير أرض العراق، وتطهير ترابه من شرور المعتدين...

سمع شريف بلواء علي الأكبر الذي التحق به المتطوّعون من مختلف محافظات العراق تحت إشراف العتبة الحسينية... وسمع بفرقة العباس القتالية التي التحق بها المتطوّعون من مختلف المحافظات تحت

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

إشراف العتبة العباسية... وسمع بفرقة الإمام علي التي انخرط فيها المتطوّعون من شباب العراق المتجذّرين في محافظات شتّى؛ وكانت هذه الفرقة تحت إشراف العتبة العلويّة... وسمع بلواء الطّفوف، ولواء المرجعيّة، وغيرها من التشكيلات المتنوّعة المنصويّة تحت ألوية الحشد الشعبي...

وفي ظهيرة يوم الجمعة ترك شريف غداه الذي كان على وشك البدء بتناوله وهو يقفز فرحاً من سماعه خطبة وكيل المرجعيّة في محافظة كربلاء الشيخ عبد المهدي الكربلائي؛ وهو يتلو بيان النصر في خطبة الجمعة تلك.... كان البيان مصوّراً أو مخزوناً على الموقع الالكتروني لفضائية كربلاء.

كان يقفز فرحاً؛ وهو يستمع إلى كلماته الدافئة الحماسيّة :

- بسم الله الرحمن الرحيم : أيّها الأخوة والأخوات : قبل أيّام أعلن رسمياً عن تحرير آخر جزء من الأراضي العراقيّة من سيطرة تنظيم داعش الإرهابيّ، وبهذه المناسبة نلقي على مسامعكم هذه الكلمة:

يقفز شريف فرحاً؛ يصرخ بقوله... :

- إني والله هم الشرفاء... هم الشرفاء... هم الشرفاء... أكمل
يا شيخ بالله عليك... يصمت الفيديو... يهدأ قليلاً... يحدث
نفسه...:

- لأجهز أوراقى وقلمى كي استجمع الأدلة الساندة من كلام
وكيل المرجعية التي تساعدني على إتمام ملف تقصي الحقيقة...:

- أيها العراقيون الشرفاء... بعد ما يزيد على ثلاثة أعوام من
القتال الضاري وبذل الغالي والتفيس ومواجهة مختلف
الصعاب والتحديات انتصرتم على أعتى قوة إرهابية استهدفت
العراق بماضييه، وحاضره، ومستقبله، انتصرتم عليها بإرادتكم
الصلبة وعزيمتكم الراسخة في الحفاظ على وطنكم وكرامتكم
ومقدساتكم، انتصرتم عليها بتضحياتكم الكبيرة حيث قدمتم
أنفسكم وفلذات أكبادكم وكل ما تملكون فداءً للوطن الغالي
فسطّرتكم أسمى صور البطولة والإيثار وكتبتم تأريخ العراق
الحديث بأحرف من عز وكرامة، ووقف العالم مدهوشاً أمام
صلابتكم، وصبركم، واستبسالكم، وإيمانكم بعدالة قضيتكم
حتى تحقّق هذا النصر الكبير الذي ظنّ الكثيرون أنّه بعيد المنال؛
ولكنكم جعلتم منه واقعاً ملموساً خلال مدة قصيرة نسبياً،

ثلاثية سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

فحفظتم به كرامة البلد وعزّته وحافظتم على وحدته أرضاً وشعباً، فما أعظّمكم من شعب.

يبدأ شريف ويجلس جلسة وقورة تليق بكلمات البيان وصاحبه... يملأ الفرّح المكان... على الرغم من أنّ المترجم ليس عراقياً، لكن محبة العراق والعراقيين انطبعت على شغاف قلبه ؛ إذ أصبح مدمناً للبحث عن الحقيقة، ولا سيما الحقيقة في الحرب على العراق، وتشكيل التجمعات التكفيرية لانتهاب خيراته، والإيغال بوضعه كي يبقى مريضاً بلا قوة رادعة...

يستنشق طعم الفرّح بنفس عميق... يعاود الجلوس قرب الحاسوب ليستمع بوقار إلى بقية الكلمات :

- أيّها المقاتلون الميامين.. يا أبطال القوّات المسلّحة بمختلف صنوفها وعناوينها : إنّ المرجعية الدينية العليا صاحبة فتوى الدّفاع الكفائيّ التي سخّرت كلّ إمكانياتها وطاقاتها في سبيل إسناد المقاتلين، وتقديم العون لهم، وبعثت بخيرة أبنائها من أساتذة وطلّاب الحوزة العلميّة إلى الجبهات دعمًا للقوّات المقاتلة، وقدّمت العشرات منهم شهداء في هذا الطّريق... لا ترى لأحدٍ فضلاً يداني فضلكم ولا مجداً يرقى إلى مجدكم في

تحقيق هذا الإنجاز التاريخي المهم .. فلولا استجابتكم الواسعة لفتوى المرجعية وندائها واندفاعكم البطولي إلى جبهات القتال وصمودكم الأسطوري فيها بما يزيد على ثلاثة أعوام لما تحقّق هذا النصر المين. فالنصر منكم ولكم وإليكم، وأنتم أهله وأصحابه؛ فهنئاً لكم به، وهنيئاً لشعبكم بكم، وبوركتكم وبوركت تلك السواعد الكريمة التي قاتلتكم بها وبوركت تلك الحجور الطاهرة التي ربّيتكم فيها. أنتم فخرنا وعزّنا، ومن نباهي به سائر الأمم. ما أسعد العراق، وما أسعدنا بكم لقد استرخصتم أرواحكم وبذلتكم مهجكم في سبيل بلدكم وشعبكم ومقدّساتكم؛ إنّنا نعجز عن أن نفیکم بعض حقّکم؛ ولكن الله تعالى سيوفیکم الجزاء الأوفى، وليس لنا إلا أن ندعوّه بأن يزيدَ في بركاته علیکم ويجزیکم خير جزاء المحسنين.

- إي والله يا شيخ - ما أسعد الشرفاء بكم - [هكذا يستمرّ شريف بمحادثة نفسه وهو يصغي إلى خطبة النصر]...
- في ترحالي عبر كثير من الدول وعلى العديد من الأراضي، لم أجد شعباً متماسكاً في المحنة مثلكم، فهنئاً لكم...
- أنتم من تستحقون الوصف بالشرفاء حقاً... :

- أيها الأخوة والأخوات: إننا اليوم نستذكر بمزيد من الخشوع والإجلال شهداءنا الأبرار الذين روّوا أرض الوطن بفيض دمائهم الزكية؛ فكانوا نماذج عظيمة للتضحية والفداء. ونستذكر معهم عوائلهم الكريمة: آباءهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم وأخوتهم وأخواتهم، أولئك الأعزّة الذين فُجِعوا بأحبتهم فغدّوا يقابلون ألم الفراق بمزيد من الصبر والتحمل. ونستذكر بعزّة وشموخ أعزّاءنا الجرحى؛ ولا سيّما من أصيبوا بالإعاقة الدائمة؛ وهم الشهداء الأحياء الذين شاء الله تعالى أن يبقوا بيننا شهودًا على بطولة شعب واجه أشرار العالم؛ فانتصر عليهم بتضحيات أبنائه. ونستذكر بإكبار وامتنان جميع المواطنين الكرام الذين ساهموا في رفد أبنائهم المقاتلين في الجبهات بكل ما يعزّز صمودهم، حيث كانوا خير نصير وظهير لهم، في واحدة من أروع صور تلاحم شعب بكافة شرائحه ومكوّناته في الدفاع عن عزّته وكرامته. ونستذكر بشكر وتقدير كلّ الذين كان لهم دور فاعل ومساند في هذه الملحمة الكبرى من المفكرين، والمثقفين، والأطباء، والشعراء، والكتّاب والإعلاميين وغيرهم. كما نقدّم الشكر والتقدير لكلّ الأشقاء والأصدقاء الذين وقفوا مع

العراق وشعبه في محنته مع الإرهاب الداعشي، وساندوه وقدموا له العون والمساعدة سائلين الله العليّ القدير أن يدفع عن الجميع شرّ الأشرار، وينعم عليهم بالأمن والسلام.

إي والله، كلّهم يستحقّون الشكر والثناء والاستذكّار... تستحقّ هذه البشارة أن أشرب عصيرًا باردًا...

يتأمّل شريف بكلام الخطبة... وكيف كانت خطبة إنسانية في الدرجة الأساس... يبدأ بكتابة أهمّ النقاط التي يحتاج إليها في تدوين تقريره المساندة لملف تقصّي الحقيقة... فالخطابات المحايثة للأحداث تعدّ وثيقة ساندة للحكم على الأطراف المتنازعة، فألفاظ التحريض محسوبة، وتكون أدلة إدانة في حالات الصراع... كما أن خلافها يكون دليل انتصار للحقّ...

يعيد الاستماع إلى الفقرات السابقة من البيان في خطبة النصر... يخضعها لآليات تحليل الخطاب؛ لكنه لم يجد ما يُدين، بل وجد ما يؤكّد أن الحشد وأهله على حقّ، وهم في موضع دفاع، وحتى في موضع هجومهم الدفاعي لم يكونوا عدوانيين... وإنّ كبارهم يحثّونهم على التكاتف والرحمة بالميزان نفسه...

(٢)

يستغرق شريف في رصد ردود الأفعال على تفاصيل خطبة النصر... يلتفت أنه لم يكمل الاستماع إليها... فبعض الوكالات الخبرية وجّهت أصابع الاتهام إلى المرجعية ؛ بأنها تحثّ على العنف واللاتعايش... لذا عمد إلى استعادة نصّ الخطبة ؛ ليكمل قراءته، ويحلّل تراكيب الخطاب على وفق آليات تحليل الخطابات ؛ كي يصل إلى الحجج الدافعة أو المؤيِّدة لاتهامات الوكالات تلك...

من فرط فرجه شعّر شريف بحرارة في داخله ؛ وأعزها لحرارة الفرح التي لا يطفئها العصير البارد... لذا عمد إلى الثلاجة كي يستخرج منها علبة العصير البارد... يسكب العصير في كأسه المفضّل الذي أهداه إليه سليم؛ هو يحبه كثيراً لا لأنه نفيس، بل لأنه من مقتنيات ثكنته التي أحبّها شريف... يشرب المترجم عصيره؛ وهو جذل مختال... يبحث في محرّكات البحث مجدّداً عن فيديو إلقاء خطبة النصر من الصحن الحسيني في كربلاء... يجده ويبدأ يستمع إليه من

جديد، لم يسعَ لتقديم الكلام إلى حيث انتهى من سماعه قبل قليل، بل عمد إلى الاستماع للخطبة من جديد ومن أولها... شغفاً بتجديد الفرح بداخله... فخطابات النصر منعشة كإنعاش العصير البارد في اليوم القائنض...

يركز المترجم شريف على الكلمات والعبارات من حيث وصل قبل قليل بعد أن أتمَّ معاودة الاستماع لما سبق من كلمات الخطبة من أولها... يفرح بما يسمع من بشارات يقصّها عليه وكيل المرجعية... يحدث نفسه بسرور بالغ :

- ما أبهاها من كلمات... وما أجملها من مشاعر تخالجي، أتمم أيها الشيخ الوقور، كلامك المبشّر غير المنقّر...:
- هناك عدّة أمور لا بدّ من أن نشير إليها :
- أولاً : إنّ النصر على داعش لا يمثل نهاية المعركة مع الإرهاب والارهابيين، بل إنّ هذه المعركة ستستمرّ وتتواصل ما دام هناك أناسٌ قد ضلّلوا فاعتنقوا الفكر المتطرّف الذي لا يقبل صاحبه بالتعايش السلمي مع الآخرين ممّن يختلفون معه في الرأى والعقيدة، ولا يتورّع عن الفتك بالمدينّين الأبرياء، وسبي الأطفال والنساء وتدمير البلاد للوصول إلى أهدافه الخبيثة، بل ويتقرّب إلى

الله تعالى بذلك .. فحذارٍ من التراخي في التعامل مع هذا الخطر المستمر والتغاضي عن العناصر الإرهابية المستترة، والخلايا النائمة التي تتحين الفرص للنيل من أمن البلد واستقراره.

إن مكافحة الإرهاب يجب أن تكون بالتصدي لجذوره الفكرية والدينية، وتجفيف منابعه البشرية والمالية والإعلامية، ويتطلب ذلك العمل وفق خطط مهنية مدروسة؛ لتأتي بالنتائج المطلوبة، والعمل الأمني والاستخباري، وإن كان يشكل الأساس في مكافحة الإرهاب إلا أن من الضروري أن يقترن ذلك بالعمل التوعوي لكشف زيف الفكر الإرهابي، وبطلانه، وانحرافه عن جادة الدين الإسلامي الحنيف؛ متزامناً مع نشر خطاب الاعتدال، والتسامح وترويجه في المجتمعات التي يمكن أن تقع تحت تأثير هذا الفكر المنحرف؛ فضلاً عن ضرورة العمل على تحسين الظروف المعيشية في المناطق المحررة، وإعادة إعمارها، وتمكين أهلها النازحين من العودة إليها بعزة وكرامة، وضمان عدم الانتقاص من حقوقهم الدستورية، وتجنب تكرار الأخطاء السابقة في التعامل معهم.

يتأمل المترجم بهذه الفقره ؛ بحثاً عن ثغرة ممكن أن ينفذ منها المغرضون للطعن بالخطاب، فلم يجد فيه ما يسيء، بل على العكس،

فهو خطاب تنبيه للمقاتلين كي لا تخفّ همّهم، وللشعب كي يتعاونوا على ديمومة النصر... حينها يدوّن ملاحظته الايجابية... يضع القلم جانباً ويحدّث نفسه قائلاً... :

- إي والله، نعم التوصية... فالإرهاب ما زال منه إلا ظاهره، ولكن باطنه؛ ما زال يتحرّك بخفاء، بالله... أتمّم يا شيخ:

- ثانيًا: إنّ المنظومة الأمنية العراقية ما تزال بحاجة ماسّة إلى الكثير من الرجال الأبطال الذين ساندوا قوّة الجيش والشرطة الاتحادية في السّنوات الماضية وقاتلوا معها في مختلف الجبهات، وأبلّوا بلاءً حسنًا في أكثر المناطق وعورة، وأشدّ الظروف قساوةً وأثبتوا أنّهم أهلّ للمنازلة في الدّفاع عن الأرض والعرض والمقدّسات، وحققوا نتائج مذهلةً فاجأت الجميع داخليًا ودوليًا .. ولا سيّما الشباب منهم الذين شاركوا في مختلف العمليّات العسكريّة والاستخباريّة، واكتسبوا خبرات قتاليّة وفنيّة مهمّة، وكانوا مثالًا للانضباط والشّجاعة والاندفاع الوطنيّ والعقائديّ، ولم يصبهم الوهن، أو التّراجع أو التّخاذل ..

- إنّ من الضّروريّ استمرار الاستعانة والانتفاع بهذه الطّاقات المهمّة في ضمن الأطر الدّستوريّة والقانونيّة التي تحصر السلاح

ثلاثية سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

بيد الدولة، وترسم المسار الصحيح لدور هؤلاء الأبطال في المشاركة في حفظ البلد، وتعزيز أمنه حاضراً ومستقبلاً، والوقوف بوجه أيّ محاولات جديدة للإرهابيين من أجل النيل من العراق وشعبه ومقدّساته..

يتأمل المترجم شريف هذه فقره جيّداً... يعيدها كي يتمعن في كلماتها... يستخرج منها عبارة مهمّة يكتب عليها :

(جملة دامغة، ودليل قاطع)

ألا وهي قول وكيل المرجعية :

إنّ من الضروريّ استمرار الاستعانة والانتفاع

بهذه الطّاقات المهمّة في ضمن الأطر

الدّستوريّة والقانونيّة التي تحصر السلاح بيد الدولة

يعلّق بقلمه عليها عبارة :

هذه فقره ضربة دامغة لكل من يريد أن يستثمر عبارات منقوصة أو مقتطعة من هذه الخطبة أو غيرها من المغرضين للطعن بالخطاب وتوجّهات المرجعية...

ينتهي من تحليل هذه الفقره من الخطبة... يحدث نفسه ... :

فعلاً... فالنّجاح يحتاج إلى جهد مضاعف للحفاظ عليه، وتحقيق

- منجزات أعلى، وماذا بعد من حكمٍ حكيمة... استمر يا شيخ... :
- ثالثاً : إنّ الشهداء الأبرار الذين سقوا أرض العراق بدمائهم الزكية، وارتقوا إلى جنان الخلد مضرجين بها لفي غنى عنا جميعاً؛ فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولكن من أدنى درجات الوفاء لهم هو العناية بعوائلهم من الأرامل واليتامى وغيرهم، أن رعاية هؤلاء وتوفير الحياة الكريمة لهم من حيث السكن، والصحة، والتعليم، والنفقات المعيشية وغيرها واجب وطني وأخلاقي، وحق لازم في أعناقنا جميعاً، ولن تفلح أمة لا ترعى عوائل شهدائها الذين ضحّوا بحياتهم، وبذلوا أرواحهم في سبيل عزّتها وكرامتها؛ وهذه المهمة هي بالدرجة الأولى واجب الحكومة، ومجلس التّوّاب بأن يوفّر مخصّصات مالية وافية لتأمين العيش الكريم لعوائل شهداء الإرهاب الداعشي بالخصوص، مقدّماً على كثير من البنود الأخرى للميزانية العامة.
- يوقف شريف فيديو الخطبة... يدوّن على فقرتها هذه عبارة :
- الجوانب الإنسانية للضحايا... مورد تنمية مستدامة
- يشغل الفيديو مجدّداً ليستمع إلى بقية الفقرات، ويحلّلها فقرّة فقرّة؛ من أجل استكمال تقصي الحقيقة، وإتمام الملف بتجهيز الأدلة

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

الساندة، وردم الثغرات التي يمكن أن تواجه عملهم الأثمي...
- رابعًا: إنّ الحرب مع الإرهابيين الدواعش خلّفت عشرات الآلاف من الجرحى والمصابين في صفوف الأبطال المشاركين في العمليّات القتاليّة، وكثير منهم يحتاج إلى الرّعاية الطّبيّة وآخرون أصيبوا بعوق دائم، والعوق في بعضهم بالغ كالشلل الرّباعيّ، وفقدان البصر وبتّر الأطراف، وهؤلاء الأعزّة هم الأحقّ بالرّعاية والعناية ممّن سواهم، لما لهم من الفضل على جميع العراقيين؛ فلولاهم لما تحرّرت الأرض، وما اندحر الإرهاب وما حفظت الأعراض والمقدّسات؛ ومن هنا فإنّ توفير العيش الكريم لهم وتحقيق وسائل راحتهم بالمقدار الممكن تخفيفًا لمعاناتهم واجبٌ وأيّ واجب، ويلزم الحكومة ومجلس النّواب أن يوفّرا المخصّصات الماليّة اللازمة لذلك، وترجيحه على مصاريف أخرى ليست بهذه الأهميّة.

يدوّن ملاحظته على هذه الفقره :

- التركيز على الجوانب الإنسانية ؛ دليل على سلامة نوايا الجهات المرجعية وتركيزها على الإعمار أكثر من الحروب، ومن بين قنوات الإعمار : إعمار النفوس البشريّة قبل المباني الحكوميّة

- يتكئ المترجم شريف اتكاء المرتاح ؛ لأنه ساند طرفاً من أطراف الصراع في العراق؛ ووجد مساندته صحيحة، فازداد ارتياحه ؛ لأنه اعتاد على مساندة الحقيقة لا سواها في عمله ؛ نصرّة للمستضعفين... يغمض عينيه... يسحب نفساً عميقاً... يبتسم ويحدّث نفسه بانتشاء...:

- درر هذه الكلمات التي يلقيها وكيل المرجعية وليست كلاماً... هذه الشُّعوب الحقيقية والقيادات الحكيمة، لا التي تنتج داعش وتدعمه...

يستعيد جلسته... يمسك قلمه... يعيد تشغيل الفيديو من حيث أوقفه ؛ ليتّمّ الاصغاء والتحليل ... :

- خامساً : إنّ معظم الذين شاركوا في الدّفاع الكفائيّ في خلال السّنوات الماضية لم يشاركوا فيه لدنياً ينالونها، أو مواقع يحظون بها؛ فقد هبّوا إلى جبهات القتال استجابة لنداء المرجعيّة، وأداءً للواجب الدّينيّ والوطنيّ، دفع بهم إليه حبّهم للعراق والعراقيين وغيرتهم على أعراض العراقيّات من أن تُنتهك بأيدي الدواعش، وحرصهم على صيانة المقدّسات من أن ينالها الإرهابيون بسوء؛ فكانت نيّاتهم خالصةً من أيّ مكاسب دنيويّة، ومن هنا حظوا

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

باحترام بالغ في نفوس الجميع، وأصبح لهم مكانة سامية في مختلف الأوساط الشعبية لا تدانيها مكانة أيّ حزب، أو تيّار سياسيّ، ومن الضّروريّ المحافظة على هذه المكانة الرّفيعة والسّمة الحسنة، وعدم محاولة استغلالها لتحقيق مآربٍ سياسيّةٍ؛ يؤدّي في النّهاية إلى أن يحلّ بهذا العنوان المقدّس ما حلّ بغيره من العناوين المحترمة نتيجة للأخطاء والخطايا التي ارتكبتها من ادّعوها.

يوقف المترجم الفيديو ويكتب بحماسة تعليقه على جزء من هذا المقطع، وهو :

ومن الضّروريّ المحافظة على هذه

المكانة الرّفيعة

والسّمة الحسنة،

وعدم محاولة استغلالها لتحقيق مآربٍ سياسيّةٍ؛

يؤدّي في النّهاية إلى أن يحلّ بهذا العنوان المقدّس

ما حلّ بغيره من العناوين المحترمة نتيجة

للأخطاء والخطايا التي ارتكبتها من ادّعوها.

- واصفًا إيّاه بأنّه دليل دامغ للنوايا الحسنة للعراقيين من أتباع

المرجعية العليا الذي لبّوا نداء الفتوى، ويضع خطأً تحت بعض

العبارات التي اقتبسها ؛ مؤكداً على أهليتها لأن ترقى دليلاً قاطعاً
لحل النزاع...

- يحدث المترجم نفسه وهو يشغل فيديو خطبة النصر ؛ ليكمل ما
بدأه من جديد... قائلاً... :

هم على درب الأنبياء... هكذا هم المستضعفون لا لجن، بل
لقناعة بأن الدنيا فانية، ولا يعزّ الوجود فيها إلا الكرامة... نعم، أتمم
يا شيخ :

- سادساً : إنّ التّحرّك بجدّ وفعاليّة لمواجهة الفساد والمفسدين؛
يعدّ من أوّلّيات المرحلة المقبلة؛ فلا بدّ من مكافحة الفساد الماليّ
والإداريّ بكلّ حزم وقوّة بتفعيل الأطر القانونيّة وبخطط عملية
وواقعيّة؛ بعيداً عن الإجراءات الشّكليّة والاستعراضيّة.. .. إنّ
المعركة ضدّ الفساد - التي تأخّرت طويلاً - لا تقلّ ضراوة عن
معركة الإرهاب إن لم تكن أشدّ وأقسى، والعراقيّون الشّرفاء
الذين استبسلوا في معركة الإرهاب قادرون- بعون الله - على
خوض غمار معركة الفساد والانتصار فيها أيضاً إن أحسنوا
إدارتها إدارة مهنيّة وحازمة. نسأل الله العليّ القدير أن يأخذ بأيدي
الجميع إلى ما فيه خير العراق، وصلاح أهله أنّه سميع مجيب.

ثلاثية سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

بعد أن أنهى المترجم شريف استماعه للخطاب، وأمن على دعاء الشيخ الكربلائي في آخر الخطبة، مسك القلم وأخذ بتدوين خلاصة تحليله التي جاء فيها :

لعلّ أهم ما يمكن تدوينه من هذا الخطاب كأدلة على أحقية أنصار الفتوى:

- التأكيد على تسمية الفتوى بـ «فتوى الدفاع الكفائي» ؛ ونستفيد من هذا التوصيف أنّ الفتوى فتوى دفاع لا هجوم ؛ بمعنى أنّ العراقيين هم المعتدّ عليهم، ومن أنها كفائية ؛ أي ليست استنفاراً، فبمجرد تحقّق الجهوزية بالعدد والعدّة للتمكّن من التحرير، يتوقّف الاستقطاب؛ بمعنى أنّ الفتوى تمكينية لا توسّعية؛ على خلاف شعار داعش : باقية وتتمدد...
- التأكيد على رحمة الشعب وضحايا المجاهدين والجرحى منهم فضلاً عن عوائل الشهداء ..
- السعي لحصر السلاح بيد الدولة وتحت طائلة القانون...
- محاربة الفساد بكل أشكاله؛ وعدم استغلال شعبية الحشد الشعبي لمكاسب دنيوية؛ فوظيفتهم لمساندة القوات الأمنية لتحقيق النصر ومن بعده العدالة...

يضع شريف قلمه على الملف الذي أعدّه من تحليل خطبة النصر... يتكئ اتكاء المنتشي... يتأمل في الأريحية التي هو فيها بعد أن كان مشدودًا طيلة المدة السابقة ؛ خشية تداعي القضية وتدهور الوضع... ينتفض... مبادرًا نفسه بالحديث... :
الآن يطيب الطّعام... سمعت ما يفتح شهوة الطّعام، ويعلي القضية... مبارك لكم أيّها الشّرفاء، ولك أيضًا يا شريف [يقولها بفرح ويضحك من صميم قلبه]...

الفصل الخامس

(١)

في ليلة الجمعة وفي اليوم ٢٠ تحديداً من شهر تموز عام ٢٠١٧ جاء مخاض الطلق عند سارة، بعد أن اتصل بها سليم لينبئها بنأ دخوله الموصل مع أبطال القوات الأمنية من الجيش العراقي والشرطة الاتحادية والحشد الشعبي... إذ بشرها بالنصر قبل أن تبشر الحكومة، وكانت بشارتها هي له ذات ثلاثة شعب، بشارة تحرير الموصل، وبشارة زيارة الحسين عليه السلام ليلة الجمعة من كربلاء، وبشارة قرب المخاض؛ إذ كانت تنتظر منذ أيام، فحملها دخل اليوم السادس بعد التسعة أشهر، منذ آخر ليلة زارها سليم قبل وداع الفرح، حيث ذهبت لكربلاء وهو ذهب لتحرير الموصل...

كانت المؤنسة لسارة في مخيم العقيلة؛ هكذا كانت تسميه سارة تفاؤلاً، هي الحاجة أم علي شريكتها العجوز التي ما فارقتها منذ أن دخلتا في خيمتهما المشتركة...

ترافق الحاجة أم علي شريكتها سارة إلى مستشفى زين العابدين

عليه السلام المتكفل برعاية النازحين في العتبة الحسينية المقدسة.. وبعد انتظار قصير وليس طويلاً تخرج الممرضة من غرفة العمليات لتفّرح الحاجة أم علي بالتوائم...

تزغرد أم علي من دون وعي فرحاً بالقادمين الأحبة... وبعد زغردة طويلة، ونثار الحلويات على رؤوس الحاضرين... التفتت أم علي إلى الممرضة متسائلة... :

- قلت توائم؟ يعني كم طفل...؟
- ثلاثة صبيان يا حاجة...
- تزغرد أم علي زغروdat ثلاثاً...
- ضحكت الممرضة وهي تجمع الحلويات من على كتفها، وما حولها... سائلة الحاجة أم علي... :
- لماذا زغردتي ثلاث زغروdat...؟
- يا ابنتي لكل صبيّ زغرودة... كي لا يزعل أحدهم علي ويعاتبني حينما يكبر...
- يضحك الحاضرون حول الحاجة التي استمرت بالزغاريد وكأنّ سارة ابتتها... ويهنئ الجميع الحاجة ظانين أنّها أمها ؛ من فرط فرحتها، ومبالغتها بالزغاريد...

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

تدخل الحاجة أم علي على شريكها سارة حجرتها بعد أن أذنت لها الطيبية، ولكن بشرط أن تمتنع عن الزغاريد ؛ لأنّ الأطفال يخافون منها ؛ إذ لم يعتادوا على الصوت العالي وهم لشهور في بيوتهم الآمنة الساكنة المفعمة بالهدوء (بطون أمهاتهم...

لم تسكت الحاجة أم علي عن المحاججة... فهي كعادتها تحبّ المجادلة ؛ إذ توجّهت إلى الطيبية بالاعتراض الحميم وبلغه الممازحة...
- دكتورة، أطفالنا غير أطفالكم...

تستغرب الطيبية من تصريح العجوز التي نجحت في شدّ انتباهها... :

- وكيف يا حاجة؟ بماذا يختلفون؟...
- أطفالنا تعودوا على أصوات الرصاص والمدافع حتى وهم في بطون أمهاتهم، فلا يقلقهم الصوت العالي، فلمَ تمنعيني من الزغاريد؟...

- يا حاجة، حسب طبلة المريضة فهي منذ تسعة أشهر بكرباء ؛ إذن التوائم لم يعتادوا على الرصاص والمدافع كما ترعمين...
- تضحك الحاجة أم علي والمرضات اللواتي حولها، وتبادر الطيبية بالاعتراف... :

- لقد غلبتني الدكتورة...

يضحك الجميع... وهم متجهون نحو غرفة سارة ؛ لطمأنة الحاجة عليها... تدخل العجوز، وتهمس في أذن سارة همسات... تضحك منها... تلتفت إليها الطيبة مستغربة، سائلة سارة... :

- بماذا أخبرتك أمك؟...

تستبم سارة... وتحاول استجماع قواها لإجابة الطيبة، لكن العجوز تباغتتها بالرد... :

- دكتورة أنت منعتيني من الزغردة بصوت عالٍ، وقد أخبرت سارة بذلك؟...

تنظر الطيبة إلى العجوز وتسألها مجددًا... :

- وهل هذه الجملة مدعاة لضحك سارة على الرغم من وجعها، فهي تَوَّا وضعت ثلاث توائم وبوزن ثقيل أيضًا؟...

تدخل سارة هنا لحلّ النزاع، وتعترف... :

- يا دكتورة، لقد زغردت ثلاث زغردات بهمس في أذني وقالت لي هذه على الرغم من الطيبة...

يضحك الجميع... يمتلئ المكان بالسرور والفرح... تشغل الحاجة بترتيب نومة الصغار الثلاثة بعد انسحاب الطيبة والممرضات من الغرفة...

(٢)

حينما استقرّ وضع الصغار الثلاثة في مخادعهم بمستشفى زين العابدين عليه السلام... وانشغال العجوز أم علي بهم... بادرت سارة للاتصال بسليم كي تبشّره بالولادة...

يرنّ الهاتف من دون رد... تعاود الاتصال مجدّداً من دون رد أيضاً... يزداد قلق سارة على وضع سليم؛ فهو أخبرها أمس أنهم دخلوا الموصل، ومن المؤكد أن الوضع غير آمن تماماً، فمن الطبيعي أن تدافع كلاب داعش عن جحورها، فهم مستقفلون على البقاء؛ لأنهم مشردون تجمّعوا من شذاذ الآفاق... فإن طُردوا فأين سيذهبون... والحكمة تقول لا تقاتل من لا يملك شيئاً لأنه سيستमित من أجل البقاء؛ فليس له شيء يخسره بعد روجه...

تلتفت العجوز أم علي إلى قلق سارة... تقترب منها لتحاول مساعدتها؛ فلربما آلام الوضع توجعها... :

- يا ابنتي، تحملي فما هي إلا سويغات وينتهي الألم، ويعود وضعك

إلى طبيعته...

- يا حاجة، لست موجهة من ألم الوضع، بل وجعي من ألم الفقد،
- إذ اتصلت بسليم كي أبشّره، ولكن هاتفه يرّن من دون جواب...
- لا تقلقي يا ابنتي، فهو ليس في نزهة، هو في ساحة حرب...
- لأنّه في ساحة حرب لا بدّ لي من القلق...
- استهدي بالله يا ابنتي فالقلق مضرّ بصحتك، وأنت الآن راعية
- واحدة لثلاثة صغار، فمن لهم لا سمح الله لو حصل لك شيء
- سيء...

يخفّف كلام العجوز أم علي الوضع على سارة، لكنه لم يمحه، إذ حاولت التظاهر بالراحة، لكنها من الداخل تغلي...

- استمرّت بالاتصال من دون رد أيضًا مرات ومرات ومرات...
- حتى فقدت الاتصال، إذ يجيئها المجيب الآلي من شركة الاتصالات :
- الرقم المطلوب خارج نطاق الخدمة...

تصرخ بوجع حادّ...:

- يا الله، رحمتك ولطفك... من لي بعده يا ربّ؛ إذ لا أم ولا أب،
- ولا والٍ...

تقترب منها العجوز أم علي... تحتضنها وهي تبادلها الدموع؛

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

لأنّها لا تستطيع المواصلة على فجیعة الفقد وقد تجرّعت مرارتها بولدها علي ووالده الحاج سلمان حين أخذتهم خفافيش داعش بانفجار تلعفر الكبير سنة ٢٠١٤م...

تجتمع الممرضات بقيادة الطیبة على صراخ سارة ؛ خشية ان حدث شيء لها مكروه او للصغار الجدد... فوجدن الأمر أصعب من ذلك... لم يستطعن التدخّل للتهوين ؛ لأنّ المصاب جلل... تضطرّ الطیبة أن تحقن سارة بحقنة مهدّئ حتى تسيطر على الوضع ؛ فمن دون ذلك ربما يتفاقم وضعها وتسوء صحتها ؛ ممّا يؤثر سلبيّاً في صحّة الصغار الجدد...

تأخذ سارة موجة هدوء مع أنین غير واعٍ... تسلم جفونها للنوم الاضطرابيّ... تنام بعمق لكن الأنین، واسم سليم لا يفارقان شفّتها حتى وهي نائمة، اذ استمرّت بالتمتمة بهما دون انقطاع... جميع مَنْ في الردهة من نساء نسين فرحهن بالمواليد الجديدة هنّ وانشغلن بحزن سارة التي كانت فرحانة بدل الفرحة الواحدة ثلاث فرحات، لكنها انقلبت بحزن بالغ أنساها، وأنسى من حولها، طعم الفرحة...

الفصل السادس

(١)

انصعقت الطيبة من صوت نسائيّ مدوّنٍ في ردهة المريضات...
انطلقت على غير هدّى كي تستعلم السبب... ركضت قبلها
المرضات فالوضع خطير ولا يحتمل التأخير؛ لأنّ المرأة قبل الوضع
وبعده معرّضة لأي شيء؛ فالوضع يفعل بأعضائها ما لا يفعله أي
وضع صحيّ آخر... لذلك تجد الطبيبات والممرضات في قاطع
الإنجاب على استنفار تام، وفي جهوزية تامة في كلّ وقت...

كلّما تقترب الطيبة والممرضات قبلها من الردهة التي ينبعث
منها الصوت العالي... تتغير النبرة... حتى يصلن إلى الردهة مصدر
الصوت فيبلغ مسامعهنّ الزغاريد... يجدن العجوز أم علي تزغرد
بصوت عالٍ والصغار على غير العادة لا يكون ولا يصرخون
بل يغطّون في نوم عميق، وكأنّ زغاريد العجوز أم علي هدهدة
لمسامعهم...

تقترب الممرضة من العجوز لتكمّ فاهها؛ خشية غضب الطيبة،

لكن الطيبة انشغلت عن غضبها بابتسامات سارة وهي تتحدّث بالموبايل، في حين ترقص العجوز رقصها التركماني الشعبي وسط الردهة وهي تزغرد...

تنشغل الطيبة بإشراقة وجه سارة وهي تتحدث بالموبايل مبتسمة وفرحة... أما الممرضات فيحاولن السيطرة على العجوز كي تهدأ من الدبكة وتسكت عن الزغردة من دون فائدة...

بعد مدّة ليست بالقصيرة... تهدأ العجوز من دبكتها وتسكت عن زغردتها ؛ لا لأنّ الممرضات استطعن ذلك، بل لأنّها تعبت فجلست لأخذ أنفاسها، وربما تعاود فعلتها بعد أن تستعيد قوّتها وأنفاسها...

حين ذاك تغلق سارة موبايلها... تحتضنه بشغف... تنزّ عن جفنيها دمعتان لكنهما ليستا ساخنتين بل كانتا باردتين ؛ لأنّهما دموع الفرح...

لم تلتفت لمن حولها من جموع... لم تشعر بنظرات الطيبة... لم تحسّ بوجود الممرضات... لم تكن تسمع زغاريد الحاجة أم علي ولا ترى دبكاتهما... كانت في عالم مليء ولكن بهما فحسب ؛ عالم سليم وسارة...

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

توقظ ربّته الطيّبة على كتف سارة الفتاة الحاملة... تستعيد
جلستها احتراماً لمقدم الطيّبة... وتبادلها الابتسامة... :
- هل اتصل زوجك؟...
تنظر إليها سارة بحميمية... تهزّ رأسها براحة تامّة... فهزّة
الرأس بأريحية تغني عن كلمات اللغات كلّها ؛ لأنّها تستجمع المشاعر
برمتها دون حروف...

(٢)

تمرّ موظفة تسجيل المولودين الصغار في سجل النفوس الوطني على الردهة التي تقبع فيها سارة مع توائمها الثلاثة ؛ كي تحرّر لهم شهادات ميلاد...

تجلس قرب سارة لتأخذ منها البيانات... تلاطف الحاجة أم علي الموظفة... تسكب لها عصيراً من باب الضيافة... تستلطف الموظفة سلوك الحاجة وتساءل سارة عن أسماء التوائم الثلاثة... فتجيبها سارة... :

- سلام سليم .

- حميد سليم .

- شريف سليم .

بعد ان تتمّ الموظفة إجراءات التسجيل... وتبسم سارة على صحّة البيانات... تنسحب الموظفة تاركة الردهة لأهلها... تقترب العجوز أم علي من سارة... تعدّل فرشتها... تلتفت

ثلاثية سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

سارة إليها وتباغتها بسؤال حاد... :

- يا حاجة، فرشتي لا شيء فيها، ولكني أعرفك، تفعلين الأفاعيل حين تريدين معرفة شيء، فتفضلي ماذا تريدين ان تعرفي؟...
- تبتسم العجوز ابتسامة صفراء ؛ لتعترف من خلالها بلا كلام ؛ أن في نيتها معرفة شيء... فتبدأ بالهدوء وتتوجه بالسؤال... :
- إي والله يا ابنتي، فإنك أخبرتيني أن زوجك أعلمك إذا جاءك مولود ذكر فسمّيه سلام، وإن جاءك بمولودين ذكرين فسمّيهما بسلام وحמיד، ولكن من شريف هذا، هل هو والد سليم، او والدك، أو أخ لأحدكما؟...
- لا يا حاجة، هو رجل غير عراقي أصلاً...
- إذن لماذا تسمّون ابنكم على اسمه؟...
- زوجي يقول عنه إنه رجل منصف، ومحّب للحقيقة، ويسعى لأنّ ينصفنا أمام العالم...
- ومن هو حتى ينصفنا أمام العالم؟...
- يا حاجة ! هو مترجم في فريق أمّي؟...
- وما الفريق الأمّي هذا؟...
- الفريق الأمّي هم مجموعة من الأشخاص من دول مختلفة

؛ مهمتهم البحث عن الحقائق في البلدان التي تنفسى فيها الصراعات او تكون عرضة للحرب أو العنف...

- وإلى من يقدمونها؟...

- يقدمونها إلى المؤسسات الدولية، وفي كثير من الأحيان يُنصفُ المستضعفون بسبب تقارير المنصفين من الفرق الأعمية، على قلتها...

- وهل فريق شريف هذا من المنصفين؟...

- هو منهم، ولكن فريقه لا يعرفه سليم... وحينما اتصل بي أمس وأخبرته أنني وضعت ثلاثة صغار من الذكور، فقال سمي الثالث (شريف) اعتزازاً بصديقه المنصف الباحث عن الحقيقة... وها إني قد فعلت...

تسكت العجوز... وتحدث مع نفسها وكأنها غير راضية... لكن سارة تبتسم من تصرفاتها؛ فهي استخبرتها واستخبرت أفاعليها، ولكنها بالعموم طيبة وتحب الخير للجميع... على عادة التلعفرين.

الفصل السابع

(١)

في فورة الفرح الغامر الذي سيطر على المترجم شريف العلي فور سماعه ببيان النصر الذي بشر به وكيل المرجعية الشيخ عبد المهدي الكربلائي الذي أطلق عليه سابقاً بالشّية الوقور... وحينما يُسأل عن سبب تلقيبه بهذا اللقب يقول:

- وهل هناك أكثر وقاراً من شية تتحدّى الخوف بالصدق بالجهاد الكفائي حين غطّت عباءات داعش ليل العراق... كان الشيخ وقوراً بشيئته... كان أوّل شيء يخطر بباله؛ وهو ببالغ الفرح والسرور، أن يشارك شريكه المهندس سليم الفرحة؛ فهو يرى أنّ منافسه الأكبر في فرحة النصر اليوم هو المهندس فحسب، وربّما الشهداء والمغدورون بمستوى فرحهم، أو أكثر بقليل...

أمسك الهاتف بيده... وغيّبت الفرحة وسيلة استخراج رقم شريكه للحظات... وامتزجت ضحكة الفرحة، بضحكة استكشاف انذهاله عن معرفة استخراج اسم شريكه من الهاتف... فهي هفوات لا يقع فيها إلا المبتدئون...

بعد جهد يستعيد ذاكرته ويستخرج الرقم... يكبس الزر...

تنتاب الهاتف موجة صمت... بعد حين يأتيه ملبي الشركة الصوتي :

- رقم الهاتف المطلوب مغلق حالياً، أو خارج نطاق الخدمة...

يكرّر المترجم المحاولة، ولكن الإجابة هي... :

- رقم الهاتف المطلوب مغلق حالياً، أو خارج نطاق الخدمة...

تتحول حالة الفرخ الغامر عند المترجم شريف إلى حالة من القلق المفرط... فحال العراق ليس بخير... الفوضى هي سيّدة الموقف حتى وإن كانت تبشير النصر مرفرفة على سمائه...

النصر هو غلاف براق لحقيقة ربما تخالفه... وفي وضع كوضع العراق يكون احتمال انطباق هذا الاحتمال كبيراً جداً...

بين وقت وآخر يعاود شريف الاتصال بشريكه... دون جدوى؛ فالجواب هو عينه :

- رقم الهاتف المطلوب مغلق حالياً، أو خارج نطاق الخدمة...

تستمرّ المحاولات... ويستمرّ الردّ نفسه... وسيطر القلق...

يتحول إلى خوف... ثم هلع... وينتهي بالدّعر... فربّما حدث ما كان يتمناه ولا أتمناه له...

الله يستر...

(٢)

بعد امتداد ذعر شريف على حال المهندس سليم لأيام... واستمرار انغلاق الهاتف بلا رد... يرّن الهاتف بعد أكثر من أسبوعين تقريباً... لم يعد ذهن شريف يستوعب الأرقام؛ فالمحاولات استمرت أسبوعين... ثلاثة... لا يعلم؛ فالذعر يُنسي الإنسان التفاصيل الصغيرة والكبيرة، ولا يتذكر إلا هدفه الجزئي الذي يحاوله، وهدفه الجزئي في المدة السابقة؛ هو أن يتواصل مع شريكه بأي حال من الأحوال...

يرّن الهاتف... لكن (شريف) لم يكن فرحاً بالرّنين؛ لأنّه كان يخشى أن يسمع ما لا يسره... بعد بضع رنّات يرفع الهاتف... يقع على أذن شريف وابل من القلق المزلزل... يترقب (ألو) المهندس بشغف، كأول (ألو) من مراقب استجابات له معشوقته التي سيطر على عقله هيامها...

جاءت الـ (ألو) الأولى؛ لكنها كانت صاعقة... مخيبة... بدأت

المخاوف التي يريد أن يبددها من دون جدوى تكبر في مخيلته... إنها
(ألو) من صوت نسائي، و (ألو) المهندس كلّها رجولة، شهامة،
صلابة... فكيف استبدلت بذلك كلّ صوتًا نسائيًا؟ .

السلام عليكم أستاذ شريف...

الصّوت النّسائيّ يغطّيه الحزن العميق... صوت ينبئ عن
حدوث ما كان لا يجرّوه...

- مَنْ معي؟

- أنا سارة زوجة المرحوم...

- أيّ مرحوم؟

- صديقك المهندس....

هنا تأخذ العتمة مأخذها من ناظري شريف....

- متى؟ وكيف؟ ولم الآن؟

- استغفر الله أستاذ شريف، هذا قدر الله سبحانه، علاوة على أنّه

منى المرحوم أن يلبس ثوب الشّهادة، ويلحق برفيقه الميساني

والبصري...

- حدّثيني كيف حصل ما حصل؟

- في معركة النصر الأخيرة... وفي آخر لحظات الاحتفال بالانتصار

ثلاثية سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

- جاءته رصاصة قنّاص غادرة...
- لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم...
- ونعم بالله... أتعلم يا أستاذ شريف قبل المعركة جاني على غير عادته في الليل، وقال نحن فجرًا بعد يومين سنتحرّك لتحرير الموصل... وهذه الأوراق تسلّمينها للمترجم شريف العلي؛ وهذا رقمه إن لم أعدّ فاتّصلي به، وأعطاني هاتفه وأخذ هاتفني كي أتصل بك بعد استشهادي؛ خشية أن يضيع هاتفه حينها ولا يصل إليّ...
- وحينما انزعجت من نطق عبارة الشهادة، وقلت له : ولم تتفاعل بوجهي هكذا... أجابني بمودّة : إنّها الشّهادة يا سارة؟ مناي من دنيائي... وأخبرته بصدق : يائها وإن كانت منك؛ لكنها مصدر فقدي... كيف أحتمل الدّنيا من دونك ؟... فأجابني بودّ أيضًا : الحياة قصيرة يا عزيزتي، ولكن خاتمتها على خير غير مضمونة... فصدّقيني أنا لا أحتم على الله، ولكن النصر محتمّ، ولا أريد الحياة بعد النصر؛ فالشّهادة حيلتي وملاذي... وحين اعترضت عليه بقولي : وما أدراك بأنّ النصر محتمّ؛ فلربّما المعركة تفشل، وتحتاج إلى جنود ليستمرّوا بالصّمود، وحينها ستغيب

ولا تشارك بمعركة الصمود... أجايني بكل ثقة : ثقتي بعزيمة الشباب والكهول التي زحفت باتجاه الموصل... الشر الذي يتطاير من أعينهم يحرق جبروت الداعشين لا محالة، والنصر معقود برايتهم التي عقدها لهم مرجعنا المفدى السيد السيستاني أدام الله ظله... فكان له يا أستاذ شريف ما أراد... والصندوق أمانة عندي؛ فكيف تأخذه؟

- طيلة حديث سارة عن مجريات آخر لقاء لها مع المهندس سليم، كان المترجم مصغياً بحرقه ودموعه منهمة على خديه، ولكن يجريها بصمت حار وحاذ... وحين انتهت من حديثها، أجاها... :

- لا عليك، سيصل إليك رسول من طرفنا إلى حيث مستقرُّك ليأخذه منك...

- بالانتظار...

- شكراً جزيلاً... ولا تتردي بطلب أي شيء مني إن احتجت إليه؛ فمعزة الشهيد المهندس لا تقدّر بشيء عندي، ويكون طلبك مصدرًا لسروري؛ فلا تبخلي علي بذلك...

- أحتاج إليك بالخير إن شاء الله؛ فما للدنيا طعم بعد رحيل

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

الشهيد... وغاية ما أرجوه ألاّ تطول مدّة التحاقى به عند الرفيق
الأعلى...

- وقبل أن ينتهي الكلام بينهما... بادرت سارة بنبرة المستذكر... :
- لحظة يا أستاذ شريف...
- نعم أختي سارة... تفضلي...
- أتعلم ما كان آخر عبارات وصيته في الاتصال وأنا في مستشفى
زين العابدين بكر بلاء؟...
- ما هي لطفاً؟...

قالها على وجلٍ ؛ لأنّه كان على يقين أنّ مفرداتها ستقطع قلبه...
انتظر جواب سارة على سؤاله... :

- حينما أوصاني بأنّ اسمي أولادي الصغار من الذكور إن رزقني
الله بهم بسلام، فإن رزقني بتوأم، فاسميهما : سلام وحמיד، أتعرف
أنّ الله رزقني بتوأم ثلاثة...
- سبحان الله...
- أتعلم بماذا أوصاني حين أبلغته بالخبر؟...
- بماذا أوصاك؟...
- أوصاني أن أسمّي التوأم الثالث (شريف) اعتراضاً بك...

ينهار شريف في هذه اللحظة... يتعالى بكاؤه... ويندبه بصوت
حارّ وحادّ... ولم يستطع الطرفان إنهاء المكالمة بسبب انشغالهما
بالعويل... ولا يدري الطرفان من قطع الاتصال بالآخر حين
استقرّت روحاهما...

الفصل الثامن

(١)

على مدار أيام يسعى المترجم شريف العلي إلى إقناع الفريق الأممي الذي ينتمي إليه، وسائر الفرق الأممية التي جاءت برفقتهم؛ من أجل تقصي الحقائق في العراق، وهم متمركزون في بغداد العاصمة...

لم يكن الحوار السابق بين شريف من جهة، والفرق من جهة أخرى، مجدياً بنحو كبير، فما تزعزع في قناعات بعض الأعضاء قليل جداً، والبقية يدافعون عن قناعاتهم بأنّ الحشد مليشيا، والجرائم التي جرت في مدن العراق ومحافظاته وقراه هي ليست بسبب تنظيم داعش فحسب، بل بعضها على أيدي عصابات الحشد- كما يصفونها- وألصقت بالتنظيم، أو ألصقت بآخرين...

وفي كلّ مرّة يخرج المترجم وثيقة من شاهد عيان من منطقة مختلفة من مناطق العراق في جزئه المدّس بحوافر تنظيم داعش وكياناته الخفّاشية... هذه الوثائق التي كما كانت أدلة عظيمة، كانت ذكرى أعظم من الشهيد المهندس سليم الذي كان يصفه بـ « مفجّر

الحقيقة في ذاتي»...

تجمّعت الفرق على عاداتها في قاعة النقاشات من أجل تقصي الحقائق؛ بالوثائق المتوافرة لديهم، وكان البحث قد وصل إلى مدينة بلد، أو كما يسمّيه العرف الإداري العراقي بقضاء بلد...
أبرز بعض الأعضاء وثائق إدانة عبر مواقع خبريّة، أو شهادات غير موثوقة؛ لأنّها غير مصوّرة، أو على لسان داعشي، أو عضو منحلّ من حزب البعث البائد... لم تكن الشّهادات التي كانت ملغومة بتشويه سمعة الحشد على وجه الخصوص... والقوّات الأمنيّة على وجه العموم...

في هذه اللّحظة لم يكن شريف مبتدئاً كلامه بالردّ، بل كان يُصغي لما يُقدّم من وثائق... وحينما وجد الكلام انسحب إلى تخمينات غير منطقيّة، وبأدلة غير حقيقية أمسك زمام المبادرة ليدلوّ بدلوه...
خاطب رئيسه مستنذناً إيّاه بالحديث... فهزّ الرئيس رأسه على مضض؛ إيداناً بالإذن للحديث...

سكت شريف؛ فاستغرب الفريق ومنّ حوله من الفرق الأخرى من صمته؛ وهو كان منبرياً قبل قليل للحديث؛ فسأله رئيسه بحركة إيمائيّة عن سبب صمته؛ فأجابه:

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

- شعرت بعدم رضاك للحديث، وليس من المنطقي أن أتحدّث؛ ورئيسي غير راضٍ.
- أخرج رد شريف الرئيس؛ ممّا اضطرّه للقول :
لا... قطعاً، يا عزيزي، فهذه مهمّتك؛ إذ عليك أن تتحدّث للجميع عمّا بلغك من وثائق، وإن كانت لليوم غير مصدر موثوق عندي...
- يرد شريف على رئيسه :
- سيادة الرئيس هذه الوثائق هي من المصدر نفسه الذي جعلنا نجازف، ونذهب إلى العراق من أجل اللقاء بصاحبها...
- يحاول الرئيس أن يتملّص من الحرج الخانق الذي وضعه فيه شريف برده الحادّ... المحرج، بطريقة ملتوية :
- آية وثائق؟ وأي شخص؟
- فيجيبه شريف :
- سيادة الرئيس... أعني « مذكرات رجل سليم »، والرجل الذي كتبها « المهندس سليم ...
- فيرد الرئيس ردّاً بارداً :

- على كل حال الفرق البقية لا تعلم عما تتحدث؛ فقل ما عندك إن كنت ما زلت راغباً في الحديث...
- نعم... سيدي الرئيس أرغب في الحديث إن أذنت لي...
- تفضل...

يتصفح الحضور وجوه بعضهم؛ منتظرين ما سيرزاه المترجم شريف العلي من وثيقة، وإن كانت وثائقه التي قدمها في جلساته السابقة كلها دامغة ومخرجة؛ لأنها عبارة عن وثائق مكتوبة عن فديوات مصورة لشهود عيان من المناطق المحررة من دنس داعش، والشهود موطن اطمئنان لكشف الحقائق، لا تقولات من الجاني، أو أزالاهم الذين أعانواهم على الجناية...

(٢)

كعادته، شريف المترجم، يبرز على شاشة العرض الكبيرة التي تتوسط جدار قاعة الاجتماع الواسعة للفرق جميعها، نعم، يعرض وثيقة شاهد العيان، ثم يشغل الفيديو الذي يتحدث فيه صورةً وصوتًا؛ ليكون حجةً دامغةً للمستمعين، ونادرًا ما كانت تُجابه وثيقة شريف بالردّ؛ لاستكمال أركان (الدليل) فيها .

يستأذن المترجم شريف الجميع بالإصغاء؛ تكرّيبًا لأوجاع المستضعفين؛ فشهادة الموقوف مقدّسة، والإصغاء لها شرف، كالإصغاء لتلاوة التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن الكريم؛ لأنّ الجميع يحثّ على حفظ كرامة الإنسان، ورعاية حقوقه...

يستجيب الجميع لمطلبه الإنسانيّ... يترقبون شهادة اليوم بحماسة باذخة، وإن كانت حماسة بعضهم لا للتصديق، بل لإيجاد ثغرة في ما يسمع؛ كي يقوّض أركان الشّهادة؛ فلا تحصل على مستوى (الدليل)؛ بحجة تقصّي الحقيقة، وهو في كثير من الأحيان تقصّ سفسطائيّ

لا لون ولا رائحة ولا طعم له...

ما إن شغل شريف الفيديو حتى سيطر الصمت على القاعة؛
وكأن على رؤوس المجتمعين الطير:

سأحدثكم اليوم أنا البلداوي صلاح من سكنة قضاء بلد
الأصليين؛ فولادتي ونشأتي وترعرعي فوق حشائشها، ومن مائها،
وعلى ثمارها، كنت كأبي شجرة مثمرة فيها، أحبّ العصافير، وتحبني...
أنا صلاح البلداوي الذي شاهد أباه يذبل كما تذبل حشائش
أرض بلد حين يُقطع عنها الماء، كان أبي الحاج أحمد عطية - كما
اعتاد أهل القضاء تسميته - فهو لم يحجّ بل امتلك أخلاق الحجاج؛
فهو طوال حياته المثمرة بالنقاء والطّيبة، كان يظلل على جيراننا ممن
لا يدينون بمدرسة أهل البيت عليه السلام، كما يظلل على أبنائه وعمومته
وجيرانه...

ذبل أبي بسبب العوز الذي سببه للجميع الحصار الاقتصادي
بسبب السياسة الرعناء لدكتاتور النظام البائد، وبسبب الهجمات
المتوالية لتنظيم القاعدة بعد عام ٢٠٠٣، ولما جرى علينا من ويلات
بعد حلول ظلام داعش...

يا أحبتي لم نبتل بظلام الصباح إلا بنبو خفافيش داعش على

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

أرضنا؛ فأحالتها إلى خراب... لا أريد أن أقصّ عليكم ما سمعت، بل سأكتفي بما عشته بنفسي، بأزقة مدينتي، وحيطان بيتي، وشاريين أحبّتي: أبي وأخوتي وأبنائي...

ففي ظهيرة الحادي والعشرين من شهر سبتمبر من عام ٢٠١٤ هذه الظّهيرة التي كانت بداية كسوف شمس قضائنا، وكأنّ قضاء قضائنا وقدره أن يحيا في ظلام دامس بسبب بعض جيراننا؛ فبعضهم جيران حقيقيون، ولكن بعضهم ويا للأسف، جيران يبيع جيرته بأبخس الأثمان؛ فقد دخلت علينا في سواد تلك الظّهيرة، نعم، في سوادها؛ لأنّنا لم نلاحظ ضياعنا من شدّة نكدها... دخلت علينا سيّارة كبيرة مغطّاة بسرادق (جادر) كبير، ولم تظهر منه إلا بعض أدوات الزراعة؛ فقلنا في أنفسنا: إنّها سيارة مزارعين، ولكنهم كانوا حاصدين لا مزارعين؛ إذ جاءوا لحصد أرواح أحبّتنا بقساوة قلوبهم السوداء... لحظات... وقد توسّط السيّارات مدخل القضاء... ووجدوا أنفسهم قد تركزوا في المكان الذي يرغبون فيه، ارتفعت السرادقات (الجوادر) بطريقة احترافيّة؛ وكأنّنا في فيلم هوليودي، رفعة متقاربة إن لم تكن واحدة، وخرجت من حوضها الخلفي أنواع الخفافيش البشريّة الكالحة؛ مدجّجةً بأسلحة حصاد الأرواح، من رشاش

خفيف ومتوسط، وقاذفات، ومدافع محمولة، وقنابل يدوية متنوعة؛
فإنهالوا بطريقة عشوائية على الجميع...

من حسن التدابير أن شبابنا كانوا متمركزين في ثكناتهم البدائية
التي حفرناها في مداخل القضاء؛ خشية العدو الظاهر، لا المتخفي
بأقية الجيرة...

على الرغم من بسالة شبابنا بالتصدي؛ إلا أن عدد الخفافيش
الداعشية، وتفوقهم بالترسانة التي تدججوا بها، تقهقر الشباب إلى
الخلف للحفاظ على حياتهم؛ فكان أن سقطت البيوت المتصدرة
للقضاء في قبضة الخفافيش الداعشية...

وفي ضمن البيوت تلك كان بيتنا... كنا غير مستعدين لهذا
الهجوم؛ مما اضطررتنا المباغطة للانسحاب، ولكن العدو في مرمى
البصر... فشهدنا كيف اقتادوا أبي المقعد... سحلوه كما تسحل
الخراف؛ وهو الرجل الطاعن بالسّن، الذي لا يقوى على المقاومة...
وضعوه أمام أعيننا وذبحوه بدم بارد...

في ساعات قليلة دمّروا أربعة وعشرين بيتاً تدميراً كاملاً...
وذبحوا من بقي فيه من الأحياء؛ لم يفرّقوا بين صغير أو كبير، رجل أو
أنثى، سليم أو عليل... الجميع لديهم مشروع ذبح؛ فهم كما يقولون

دومًا: جئناكم بالذبح...

وعلى موعد مع الفتح الالهي جاءهم المجاهد أبو غزوان بترسانة النصر، جاءنا لواء علي الأكبر بتباشير النصر؛ إذ اشتبك معهم من الخلف؛ فصاروا بين فكّي كماشة، مجاهدو لواء علي الأكبر من الخلف، وشباب القضاء من الأمام؛ فاستمرّ الفكّان بقضم الخفافيش الداعشية حتى انتهوا عن آخرهم...

ومن بين ما يحضرنى من كوكبة المستشهدين في تلك الطّهيّة :
الشهيد أحمد عطية، الشهيد حسين حاتم، الشهيد هاشم فارس،
الشهيد جاسم فارس، الشهيد علي جاسم فارس، الشهيدة إيمان صالح، والشهيد جاسم محمد أحمد؛ وهو بعمر الورود؛ أخذوه حيًّا وأعدّم في منطقة يثرب.
والشهيد ناظم علي أحمد، الشهيد علي أحمد، الشهيد علي نايف أبو رامي،

الشهيد محمد حسين أحمد، الشهيد علي عبد الكريم، الشهيد صلاح حسن عبد العباس، الشهيد أحمد جاسم حسين، الشهيد حميد محمد جاسم حسين.

المشاهد كثيرة، والوقائع شديدة، ولكن ما كانت بدايته بهذه

البشاعة، كيف تكون نهايته، كيان داعش الاجرامي ضرب جميع
الأعراف الإنسانية، والمواثيق الدوليّة؛ بحيث: شعاره الذّبْحُ،
وسلوكة الغدر، وحصيلته الدّمار... هذه قصّتي الحزينة يا أحبّتي،
ولكم أن تتقصّوا بقية القصّة على ألسنة الموجهين من قرى بلدنا
السّليب ومدنه وأقضيته ونواحيه...

حينما انتهى الفيديو... أصاب القاعة ذهول عميق... لم ينطق
أحد ببنت شفة... انفرط عقد الجلسة؛ وكأنّ (صلاح البلداوي) كان
رئيساً لجلستهم؛ وقد أمرهم بالانصراف بعد انتهاء قصّته... انصرف
الأعضاء؛ عضواً عضواً... وبقي المترجم شريف يللملم بوثائقه
المكتوبة والمسموعة، والمرئيّة...

الفصل التاسع

(١)

دخل المترجم شريف إلى قاعة الاجتماعات على ظنٍّ منه أنه جاء مبكرًا؛ لكنه فوجئ بأن الجميع جاء قبله، ولم يكن دخولهم قبله بقليل مثلاً؛ فجلستهم تنم عن أن وجودهم كان بمدة ليست بقصيرة، وأنهم كانوا على حوار قبل مجيئه...

ألقي التّحية عليهم، وأخذ موقعه بالجلوس بمعيّة فريقه الأممي، وما إن جلس حتى بادره رئيسه بقوله :

- يا أستاذ شريف، أغلب أعضاء الفرق معترضون على مصادر وثائقك التي تعرضها عليهم...

فوجئ المترجم شريف العلي، وكأنّ هناك اتّفاقاً، أو لا أقلّ موقفاً مبيّناً تُجاهه من غالبية أعضاء الفرق... موقف لم يكن يتوقّعه...

- استجمع ذهنه وقواه وبادرهم بالسؤال ... :

- لم أفهم؟ هل يمكن التوضيح؟ فمصادري من شخص يعرفه - في الأقل - أعضاء فريقتي - وهو من أرض الحدث، وشهود عيان

موثّقون؛ فما سبب الاعتراض، أو الطعن فيها؟
- يتوجّه رئيس فريقه بوجهه إليه، ويركّز فيه جيّدًا، ويبادره بالقول :
:

يا أستاذ، بعض الأعضاء يقولون : إنّ دراستنا لوضع العراق؛ وهو منطقة اشتغال تقصّينا للحقائق التي جرت على أرضه، هو بلد فيه تنوّع إثني، ومن ضمن ذلك التنوّع هو التنوّع الطائفيّ، ومصادر معلوماتك هي من طائفة كانت الضّحيّة الكبرى من جرّاء احتلال تنظيم داعش؛ ومن الطبيعي أن تبالغ الضّحيّة بما جرى عليها؛ لاستدراار العاطفة مرّة، ولاستحصال مكاسب مرّة أخرى، وللثّار من الجاني مرّة ثالثة... وغيرها من الدّوافع النّفسيّة، أو العاطفيّة التي لا ترقى إلى الواقع كثيرًا...

يلتفت المترجم شريف العلي إلى رئيسه، ثمّ يقلّب وجهه إلى سائر الحاضرين؛ وهو يتحدّث بثقة :

- اعتراض وجهه، ولكن شهود عياني لم ينتهوا بعد واليوم سأعرض لكم، إن منحتهموني بعض الوقت، شهود عيان من الطائفة التي لا تنتمي إلى الطائفة الضّحيّة كما أسميتموها...

ينبهر أكثر الحاضرين من اللّغة الواثقة التي ينطق بها المترجم

شريف، التي زادت المنحازين فضولاً للتدقيق في شهادات الآخرين كي يطعنوا بها، ورفعت عند المحايدین من الأعضاء روح التّحدّي لتحديد موقف حيال ما يجري، مع أو ضدّ، الفئات المتنازعة في البلد الذي يريدون تقصّي الحقائق التي جرت على أراضيه...

- ما إن تحسّون فنجان قهوة، أو كوباً من الشاي، حتى تجدوني قد قدّمتُ شهود عياني من الفئات الأخرى من طوائف الشعب العراقيّ المظلوم...

تتعالى الجلبة في القاعة، لا بسبب التوجّه لمكان الضيافة؛ لاحتساء القهوة أو الشاي، بل لاختلاف المتحدثين من المنحازين، والمحايدین تُجّاه المتنازعين على جرّ الحقيقة إلى منطقته من فئات الشعب المضطهد، والقادمين إليه بفرقهم الأُمّية لتقصّي حقائقه...

(٢)

لم يمرَّ وقت طويل على المترجم شريف العلي؛ لأنَّه واثق بما يبحث؛ لكنه كان طويلاً على الآخرين؛ بحكم عامل الترقُّب الذي يمثِّط الثَّواني لتكون دقائق وساعاتٍ... هكذا تنازع الزَّمن في حركته داخل قاعة الاجتماع...

أخذ الأعضاء بالجلوس في أماكنهم السابقة؛ ليصغوا إلى شهادات الشَّهود من فئة مختلفة؛ كان المنحازون يدفعون باتجاه أنَّها غائبة من الصَّنْدُوق الأسود الذي بحوزة شريف؛ طعناً بمصدقيَّة أركان (أدلَّته) المقدَّمة بتثبيت الحقيقة التي يدافع بها عنها؛ قبالة الحقيقة التي يحاولون رسم ملامحها بتقوُّلات غير موثَّقة...

تُضاء شاشة العرض، وتبدأ معها الحقيقة بالإضاءة شيئاً فشيئاً في أعين المستمعين، وأذهانهم، حتى أوَّلئك الذين يكابرون، ويحاولون أن يصطنعوا لهم قناعات فاترة؛ فانشداهم إلى ما يُلقى فضح قناعاتهم المضمرة...

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

أنا أبو بكر خرمان من مدينة الشرقاط... عاصرت تحوّل
الكيانات في قريتنا... فداعش لم تكن وليدة اليوم، بل هي الوجه
الجديد لتنظيم القاعدة... وقبلها كانت بعض الجهات التكفيرية منذ
زمن بعيد تطفو في مناطقنا، كانوا يوهمون بعض الشباب من أنهم
الوجه الحقيقي للتوحيد، ومن أنهم المنصفون للحق... والحمد لله لم
ينغربهم إلا القليل من قريتنا وبعض القرى المجاورة، وكانوا يزدادون
بالمدد الخارجي، من العرب والأجانب المنغربين بشعاراتهم...

وللحق أقول: إنّ الخراب يتعقب خطاهم، فأينما يجلّون، يجلّ
الخراب؛ فهم يزرعون في نفس من يؤمن بهم:

الضعيفة للمسلمين؛ وهو شعور بغیض؛ إذ كيف تحقد على
أخيك؛ وقد أوصانا النبي (ص) بمحبّتهم ومساندتهم .
والحق على القوّات الأمنية، في حين هم حماتنا وسند الدّفاع عنّا؛
فكيف نحارب من يحمينا...

والاعتداء على المال العامّ، بحجّة أنّه يعود إلى دولة كافرة، وأخذ
مال الكافر حلال؛ لأنّ ماله ودمه مستباح للموحّد...

والذين انغروا بسياساتهم وتبعوا خطواتهم من الشباب أو الكبار
؛ بسبب أساليبهم الإقناعية الخبيثة؛ بحيث أقنعوهم بأنهم جاءوا لرفع

الاضطهاد عنهم، ومحاربة من سلب منهم السلطة، ودفع المتآمرين ضدهم مع الأعاجم... بهذه النعرة الطائفية غسلوا عقول بعضهم، وشوّهوا أفكارهم وعبأوهم بالحقد والضغينة على الآخرين من أبناء بلدنا العزيز المظلوم...

ينتهي الشريط... وكالعادة ينتهي الكلام معه داخل قاعة الاجتماعات... بدت أمارات انفراط العقد في الاجتماع كما سبق من جلسات سابقة تتلو عرض شهادة شريف الفيديوية... لكن احتجاجاً نبز من قلب القاعة... :

- هذه شهادة واحدة يا شريف! والشهادة الوثّر لا تكفي... فما عرضته علينا سابقاً كان جماعة، واليوم تريد إقناعنا بشهادةٍ وتر؟. يرد شريف على المعارض بثقة مفرطة :

- أولاً أنا لا أريد أن أقنع أحداً؛ فأنا لست منحازاً كي اتهم بالانحياز، ولست ملتزماً بدين طائفة معينة، بل أنا موحد فحسب، ولا أمارس طقوس أيّ طائفة... ما أعرضه عليكم هي محتويات صندوق ورد على فريقنا من إنسان مخلص لوطنه؛ حاول أن يوثّق ما أمكنه من معلومات حباً ببلده، ودعمًا للحقيقة فيه، الحقيقة التي هي نشداننا جميعاً؛ ألسنا فرقاً لتقصّي الحقائق؟...

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

يُخرج المعارض، ومعه المضمرّون الاعتراض؛ إذ تبدو على وجوههم ملامح الحرج، ولكن الجدل لمجرد الجدل، دائماً عقيم للإنسانية، فيرد معارض آخر :

- هل لديك شهادة على النسق نفسه من طائفة المتحدث السابق، أم لا؟

يرد عليه شريف، ومن دون تفكير رد الواثق :

مؤكد لديّ؛ فالصندوق الأسود الذي أتحننا به المهندس سليم، هو بحقّ : مذكرات رجل سليم...

- إذا اعرضه علينا...

- من عينيّ، أتحبّون الآن، أم بعد الاستراحة؟...

يجمع الأغلب الأعمّ أن يكون العرض التّالي بعد الاستراحة مباشرةً؛ كي يستعيدوا نشاطهم، ويجددوا تركيزهم؛ فالأمر جلل، ويحتاج إلى وعي تامّ غير متأثر بالإجهاد والإعياء...

الفصل العاشر

(١)

بمشية الواثق توجه المترجم شريف العلي إلى قاعة الاجتماعات، كان يبكر في القدوم كي يجهز الفيديو للعرض؛ لكنه فوجئ للمرة الثانية أن أعضاء الفرق جميعاً قد حضروا وجلسوا في أماكنهم؛ وهذه المرة لم يستشعر شعور الاستعداد السلبي تجاه عرضه، بل شعور الترقب عما سيقدمه من شهادات، إلا النزر اليسير من الأعضاء الذين بانث على ملامحهم ملامح الاستعداد غير الإيجابي؛ لتوسيع الثغرات - إن وُجدت - للطعن بما سَيروُنَ ويشاهدون ويسمعون... إنها غريزة الضباع لا محالة...

يضع الـ CD (القرص المدمج) في مجرة الحاسوب المُشبك بشاشة العرض... تنسحب أنظار الحضور إلى حركته؛ رغبة في الترقب، لا فضولاً فظاً؛ وكأثم استعادوا رشدهم بوعيهم بأن وظائفهم الرئيسة هنا؛ هي: تقصي الحقائق، ومن سبلها الرشيدة؛ أن يركزوا في الوثائق، كي يستخلصوا منها الأدلة الناهضة...

تظهر صورة شاب على شاشة العرض؛ بانت عليه ملامح أهل مدينة الموصل الأقياح... وبصوت يافع آذته سنوات الدواعش؛ يبدأ بالحديث بوثوق المروجع :

- أنا أحمد إسماعيل من شباب مدينة الجامع النوري الكبير في قلب الموصل الحذباء... أنحدر من عائلة عريقة في الموصل يبلغ عمر بيت جدي أكثر من ١٥٠ سنة في هذا المكان... شاهدت في هذه السنوات ما لم أشاهد في سنوات عمري؛ فأنا من بيت ميسور الحال، لا أقول من الأثرياء، بل من البيوتات التي يكفيها ما يدخلها من وارد ماليّ لسدّ احتياجاتهم الحياتية... ولكن أسوأ ما خلفه الدواعش في بيوتاتنا هو العوز؛ فنحن لم نعتد على العوز والجوع... وقد كان هذا سبباً بانخراط بعض الشباب بصفوف تنظيم داعش، لا إيماناً بهم وبفكرهم التدميري، بل من أجل أن يضمنَ له ولعيله القوات وسدّ الرّمق... ولكنهم يا للأسف بعد انخراطهم بصفوف الدواعش تلوّثوا جبراً؛ كي لا يتعرّضوا للإعدام؛ بحجة الارتداد عن جيش الخلافة، كما يزعمون هم؛ خلافاً للحقيقة والواقع... ولا أريد أن أجنب الحقيقة فبعض الذين انضمّوا إلى التنظيم لإيمانهم بسياسته، ومؤكد أنهم كانوا مغرّرينهم...

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

سياسة الدواعش سياسة متناقضة لا يمكن أن تكون سياسة
منبثقة من النظرية الإسلامية المنظمة التي أبهرت العالم طوال التاريخ
منذ بزوغ الشريعة الإسلامية بدقتها وإنسانيتها ونظامها الرفيق بغير
المسلمين قبل المسلمين .

يتوقف الشريط فجأة... يحاول المترجم إصلاح الوضع، لكن
الحاسوب توقف... يطلب مسؤول القاعة مهندس الحاسوب
والكهرباء في الموقع؛ من أجل معالجة الأمر...

يستثمر الأعضاء هذا الوقت المستقطع قسراً من أجل احتساء
القهوة والشاي؛ كي يستعيدوا قوة تركيزهم؛ لأنّ الوطيس حَمِي نُجَاه
استقصاء الحقائق...

(٢)

قبل أن يتمّ المهندس خلل الحاسوب تجمّع الأعضاء داخل القاعة... أخذوا أماكنهم ؛ استعدادًا لإتمام شهادة المتحدث أحمد إسماعيل من منطقة الجامع النوري الكبير في قلب الموصل الحذباء... شهادة شابة كفائتها تنوّج صدقًا بلا ممارسة...

وما إن انتهى المهندس من إصلاح الخلل... واشتغل القرص من البداية، وحاول المترجم شريف تقديم الفيديو بحيث يستأنف الكلام من حيث توقّف القرص، لا أن يعيد الكلام، حتى بادره جملة من الأعضاء، وليس فردًا، وكأنّهم متفقون على غير اتفاق سابق :
لطفًا، اترك القرص على رسله،؛ فنحن نريد استعادة القول من أوله؛ فهي شهادة حادة من منطقة حادة في وقت حادّ...

على الرغم من أنّ هذا المطلب سيمدّد وقت الجلوس في القاعة؛ وهو مرهق بطبيعة الحال لأكثر الحاضرين إن لم يكن لأكثرهم، لكن شريف كان مستمتعًا لاستذواق عدد غير قليل من الأعضاء لطعم

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

الحقيقة التي استذوقها هو سابقاً بسبب (مذكرات رجل سليم) وجرّعته حينها كؤوس الحقيقة اللاذعة...

يترك شريف عرض القرص على رسله... مستعيداً صورته، وصوته، ومعانيه، من بدء القرص حتى بلوغ ما وقف عنده... فيستأنف الشاهد شهادته:

- التناقض في سياسة تنظيم داعش هو سيّد الموقف... فكيف لرجال يدينون بالإسلام، ويتججّحون بأنهم من يعيد التوحيد إلى سابق عهده، وهم يحاربون رموز الدين نفسه...

- الدواعش كانوا لا يفجّرون الحسينيات فحسب؛ التي هي في نظرهم دور شرك لا عبادة، بل كانوا يفجّرون الجوامع أيضاً؛ وهي بيوت الله سبحانه وتعالى... كانوا يعتدون على المراقدة المقدسة التي كانت موضع احترام لعلمائنا وكبرائنا ومن نحتكم إليهم في أمور ديننا... من قبيل مرقد النبيّ يونس عليه السلام، ومرقد النبيّ جرجيس عليه السلام، ومرقد النبيّ دانيال عليه السلام... وكثير من الصّرائح والمقامات التي كانت موضع تقدير علمائنا الأعلام واحترامهم وتقديسهم طوال تأريخ المدينة؛ فهل يعقل أن يكون هؤلاء الدواعش أعلم من علمائنا السابقين؟...

- ومن مظاهر تناقضهم ؛ أنَّهم كانوا يبيعون السَّجائر، بل ويتاجرون بها في المدينة، ولكن حينما يجدون شاباً يدخن فإنَّهم يجلدونه سبعين جلدةً ؟... فإذا كان التَّدخين غير شرعيٍّ ؛ فلمَ تبيعون السجائر ؟.. بعض أمرائهم يقولون نحن لا نبيع السَّجائر علناً، بل هناك بعض المجاهدين - كما يسمّونهم جزافاً - يبيعونها سرّاً؛ وهم من ضعيفي الإيمان والنَّفوس ... ولكن الحقيقة أنَّ هذه التجارة كانت تجري بدعم من أمرائهم، ويُتستر عليهم من أجل الربح المادّي والثراء الدنيوي ليس إلا؛ وهو أمر ليس من صفات المؤمنين...

- فيا أخوتي وأخواتي ممّن تسمعون كلامي... تنظيم داعش أكذوبة انطلت على عقول البسطاء والمغفلين؛ ولكنَّ مَنْ يعايشها سيجدهم بعيدين عن الإسلام كبعد الأرض عن السَّماء؛ فهم لا يفرِّقون بين المسلم وغيره، بل يفرِّقون بين مَنْ يقف معهم ومَنْ لا يقف، وإلا فضحاياهم ممّن يخالف سياستهم من جميع الفرق الإسلامية وغير الإسلامية... ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم...

كنسمات الربيع انسحب الجميع من القاعة بلا ضجيج... حتى

ثلاثيّة سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

المعارضون كانوا هادئين؛ ليس لأنهم استسلموا، ولكن تقنّعوا بقناع
القناعة كي يستعيدوا نشاطهم الاحتجاجي لاحقاً... بسبب قوّة
حجّة الشّهادة اليوم؛ لدرجة الصمت...

الفصل الحادي عشر

(١)

كانت جلسة اليوم مختلفة عن الجلسات السابقة... فصوت المعارضة خفّ فيها... لم يصدر صوت مخالفة لوثائق المترجم شريف... بل ما بانَ من الأمر أنَّ الأعضاء من الفرق الأخرى التي كانت تعرض وثائق مخالفة للتّوجّه الذي كان يقدّمه شريف قد اختفى صوتها... واختبأوا خلف أصوات الآخرين الذين كانوا يطالبون باستمرار عرض الوثائق... نعم، هم لم يلّمّحوا إلى شريف بالتحديد، ولكنهم كانوا مع استمرار سواهم بالعرض...

انتظر شريف أحد الأعضاء يقدّم وثيقته ؛ كي يتمّ مناقشتها، أو الإقرار بها كما هي، على أنّها وثيقة إدانة، أو إثبات وجهة نظر جديدة... لكن الجميع كان ينظر إلى جهة شريف، وأعينهم تقول له : هيّا قدّم ما لديك فنحن بانتظار وثائقك...

يستجيب المترجم شريف العلي إلى توّسل نظرات الجميع، وفي ضمنهم المضمرون لشيء، ولكن لا حيلة لهم سوى الإصغاء؛ تحيّنًا

لورود ثغرة يتحجّجون بها...

بيادر سليم الجميع بقوله :

- سادتي الأعضاء المحترمين، اليوم سأعرض عليكم شهادة رجل بسيط أنهى الدواعش حياته؛ وهو حيّ، وهو أيضًا من أفراد طائفة غير الطائفة الضحية التي يحلو لكم نعتها بذلك...

بيادره بالتعجب بعضهم، وبالاغتراب بعضهم، وبالاستغراب بعضهم الآخر، ولكن جملتهم واحدة :

- وهو حيّ وكيف ذلك؟

- يجيبهم شريف جواب الواثق :

- نعم... هذا ما تشاهدونه عيانًا بلا رتوش...

يستخرج الـ CD من صندوقه الأثير... يضعه في مجرّ الحاسوب... يكبس على زرّ التشغيل... يبدأ العرض... والجميع منشّدون إلى الحديث... لكن الغريب أنّ الثّواني الأولى من العرض صامتة... يطلب بعضهم باستدعاء مهندس الحاسوب، أو الصّوت؛ كي يصلح الخلل... لكن شريف يشير إليهم أن ركّزوا...

يستمرّ العرض بلا صوت... كامرة تمرّ على جسد رجل أربعيني

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

فحسب... مُسجى على الأرض بطريقة الجلوس العربية... تبدو
ملامح الحديث على الشاهد، لكن محاولات التكلّم تبقى عبارة عن
محاولات، ولكنها محاولات خائبة...

يمرّ بعض الوقت والكامرة تحاول تصوير وضعية تمّدّ الرجل
الأربعيني من دون صوت... يبقى التّرقّب سيّد القاعة... والصّمت
سيّد العرض...

(٢)

يكاد عقد صمت القاعة ينفرط... تبدأ أصوات الاحتجاج من الأعضاء بالتّعلي... يزداد الاحتجاج... ممّا يضطرّ شريف لإيقاف العرض والانبراء للحديث :

سيّداتي سادتي... لو صبرتم قليلاً لاكتشفتم أنّ هذا الشاهد العيان هو شبه مشلول بسبب تعذيب أزلام تنظيم داعش... وبسبب ذلك صار ثقیل النّطق بطيّئه...

تأخذ القاعة موجة تعاطف... يلتمسون شريف بإعادة تشغيل العرض من أوّله... فيستجيب لهم، وتعاودهم موجة الصّمت... التّرقّب... التّعاطف... التّفاعل...

بعد دقيقة أو أكثر بقليل... يبدأ الشاهد بالحديث... وإن كان حديثاً بلسان ثقیل غير مبین إلا بصعوبة... :

- أنا سائق الشّاحنة البسيطة أحمد كنّوف من سكنة القرية المسكينة (زمار) التي لم يعتدّ أهلها على العنف، لبساطة حياتهم، وانشغالهم بكسب الرّزق وقوت العیال... لذلك سقطت القرية بسهولة

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

بأيدي داعش بعد سبعة أشهر من ظهورهم في شمالي العراق من دون مقاومة تذكر...

- أنا سائق على باب الله - كما نقول في لهجتنا - أشتغل في سايلوربيعة ناقل مواد... ولكثرة دخولي وخروجي من القرية كان الدواعش يشكون بي... وبسبب فرية من أحد أفراد القرية الذين تورطوا بالانخراط في تنظيم داعش الإرهابي جرى اعتقالي بتهمة... أنا منها بريء؛ وهي أنني أسرب معلومات عنهم للقوات الأمنية من شرطة وجيش وحشد شعبي، وواقعاً أنا لم أكن أفعل هذا الفعل...

لم تكن أيام اعتقالي طويلة، بل كانت ثمانية وعشرين يوماً؛ ولكنها كانت من أشد العذابات في حياتي؛ فإنهم كانوا يعذبونني بطرائق وحشية؛ منها التعليق بالمروحة من أقدامي، أو بطريقة الشواية كشواء الغنم، وكانوا يضربونني بأنايب معدنية وبشدة، وكان وقت تعذيبهم مع وجبات الطعام، وأسمعهم يتندرون بقولهم :

(خلّوه يترىك تعذيب، خلّوه يتغده تعذيب، خلّوه يتعشه تعذيب، خلّوه يسهر على التعذيب)... كنت أتمنى الموت في كلّ لحظة . وحينما انكسر ظهري وأصبحت شبه مشلول نقلوني إلى المستشفى، ولكن لم تنته معاناتي، بل كانوا يربطونني على السرير، وفي كثير من

الأحيان أنغوط أو أتبول على نفسي، وأتعرض للضرب إذا اكتشفوا ذلك... والغريب أنّ الأطباء أيضًا كانوا يتعرضون للضرب؛ فهم من المخطوفين... والمستشفى بأكمله من أطباء وممرضين ومرضى؛ كلّهم كانوا في سجن كبير... والجميع فيه معذب ومعرض للإهانة والضرب...

ولم تكن لهم رحمة؛ لا في سجن التعذيب، ولا في المستشفى الذي هو مكان لسلب الصّحة لا لاستعادتها... فهم يدخنون، ويضربون من يدخن سبعين جلدة، كانوا يتنعمون بالأكل: ما لذ وطاب؛ ولكنهم لا يعطوننا إلا وجبة واحدة باليوم مكوّنة من بطاطا، مع صمونة جافة وصغيرة، وقليلًا من الملح...

كلّنا كنّا نعاني من سوء التغذية... وسوء الحالة النفسيّة... وسوء في الحياة، نتمنى الموت في كلّ لحظة؛ طلبًا للخلاص من كابوس مقيت؛ اسمه داعش...

أنا الآن وحيد بسبب قتل عائلتي... ومقعد بسبب كسر ظهري من التعذيب... وبلا رزق؛ لأنّي لا أقوى على العمل... والله وحده يعلم بسوء حالي...

الفصل الثاني عشر

(١)

توالت الأيام وشهود العيان الذين يعرضهم شريف هم الوحيدون على شاشة العرض... كان الصندوق الأسود الذي بحوزته هو المنجم الذي يدون منه الأعضاء المعلومات... وبات الحقيقة التي يعرضها شريف هي التي تتقاصها الفرق...

كانت قصة استشهاد أقارب السيد عبد الرزاق وأخيه حمد نور وابن عمهما مقدار سيّدة موقف اليوم التالي بحيث تأثر الحضور بقصة اختطاف نسائهم؛ وهم ينزحون من قرية سعدة باتجاه تلعفر؛ هرباً من غزو داعش... بحيث تعرّضوا لكمين داعشي؛ فأخذوا الرجال الذين كانوا من كبار السنّ بحيث كان أصغرهم سنّاً هو مقدار بعمر أربعين سنة... وألقوا جثثهم في بئر علوّ... حتى أضحت قصّتهم معروفة بشهداء (بئر علوّ)...

سرق الوقت أعضاء الفرق؛ وقد تجاوزوا وقت استراحتهم؛ بسبب اندماجهم مع معاناة الواقعين تحت وطأة الدواعش...

سحروهم ألم الطفلة سُميَّة التي جاء بها الشاب حسين جمعة مهرولاً إلى مستشفى سنجار؛ وهي تنزف من بين فخذيها... حين سأله الطبيب ما بها؟ أخبره : إنهم سرقوا طفولتها...

حينما كشف عليها الطبيب وجدها قد تعرّضت للاغتصاب...
و حين صرخ بوجه الشاب :

- لم فعلت بها هذا؛ وهي لحم بلا وعي؟
- أجابته الطفلة حينما دُهل الشاب عن الجواب .
- يا عمّ، هو أنقذني حين أضربني الدواعش... لقد خطفني اثنان من بيتنا بعد أن قتلوا أبي وأمي... اقتاداني إلى سطح الدار، وكنت لا أعرف ما يريدان... مزّقاً بجامتي... أمسكني أحدهما... وفعل الثاني ما فعل... لم يمنعه صراخي من فعلته الدنيئة... وحينما انتهى من فعلته... أمسكني الثاني وفعل الأوّل فعلة الآخر، وكنت حينها أموت من الوجد، وأتقطّع من الألم؛ ولكن لا شعور عند هذين الوحشين، وحينما سمع جيراننا الشاب (علي) صراخي هجم عليهما وقتلها، وجاء بي مسرعاً إليكم على عماه بعد أن أخذ سيّارتهما، ولم يكن يعي ما يفعل بحيث قطع على الدواعش سيطرتهم، وكانوا يرمون علينا الرصاص؛ وهو مستمرّ

بالقيادة حتى أوصلني إليكم...

يتبه الطبيب على الشاب (علي) المنقذ؛ ليتفقده؛ فلعله مصاب ولا يعلم؛ فالطفلة أخبرته أن السيطرة الداعشية أطلقت عليه النار... يحدثه الطبيب ولكن الشاب لا يجيب... يقترب منه فيجده قد تغطى بالدم... فما كان من دم على بنطاله لم يكن من الطفلة المغتصبة، بل من أثر إطلاقات اخترق ظهره؛ وهو لا يشعر، لقد غادر الحياة؛ ودمه الغيور خالط دم جارتها الصغيرة دفاعاً عنها... فالجار هكذا وإلا فلا. لم يزحف الوقت على وقت استراحتهم فحسب... بل زحف على جوعهم، بحيث انسحب الأعضاء إلى غرف نومهم من دون أن يأكل أحدهم من الطعام شيئاً... حتى ظنّ عمال المطعم في بناية مبيتهم أنّهم مجمعون على «الإضراب»...

(٢)

كان هذا اليوم يوماً مختلفاً على أعضاء الفرق جميعاً؛ إذ لم يكن فيه
نكوص نحو الحزن الملطخ بالضحايا والمجازر... بل كان يوماً مضيئاً
مختلفاً ارتسمت فيه الابتسامات على شفاه كثير من الأعضاء؛ ولا سيّما
غير المنحازين...

عرّض شريف في هذا اليوم كيف أنّ الجماعة إذا اتّحدت على
قلّتها، وضعفت حيلتها، تنّصر على إرادة الشرّ، وإن كانت أكثر قوة
وعددًا وعدّة...

كان عرض اليوم درسًا في العمل بروح الفريق، ليس في إدارة
المؤسّسات بوصفه استراتيجية إداريّة عملية، بل في إدارة ما هو
أكبر، إدارة الحياة، والعيش، والحفاظ على الكرامة، والأمن النّفسيّ
والمجتمعيّ...

عرض شريف مشاهدَ مشرّفة غطّت على مجازر الإبادات
والمفخّخات والقصف العشوائيّ والرّمي النّاريّ الأعمى على بيوت
القرى الآمنة وأهاليها...

ثلاثية سيرة الجمر - ٣- غد الكابوس

لعل أكثر ما تأثر به الأعضاء صمود بعض القرى في الدفاع عن وجودها من مثل قرية آمرلي التي دافعت نساؤها وشبابها عنها بعد أن أصابها طوق داعشي من جميع الجهات...

كيف كان الأهالي يتناوبون على الحماية... كيف كان يتناوبون على اقتسام الخبز والقوت... كيف كان يتناوبون على العيش باستنشاق الأوكسجين باقتصاد؛ فكل حياتهم صارت مثلاً للتعاون، والتعاضد، والتكاتف... بقوا هكذا كيّد واحدة حتى بلغتهم أفواج الحشد الشعبي المقدّس؛ فكانت سنداً لصمودهم...

وكذلك قرية البشير كانت مصدرًا لتفاعل الأعضاء بكيفية صمود الجماعة على العيش بكرامة على ضعفها؛ ولكن بسبب التعاون والعمل على روح الفريق... لم تكن قرية البشير بأقل من آمرلي في الصمود، وكيف أنها أصيب بطوق داعشي لأشهر من دون أن تسقط... حتى لاح دعم فرقة العباس القتالية لهم؛ فكانوا شركاء في النصر على العدو...

هاتان القريتان كانتا شاهدين على أنّ الموت يصنع النصر؛ ولو بعد حين، ولكن المبدأ أن تكون قويًا حين يضعف الآخرون، وتموت حين يحيا الآخرون بلا كرامة...

رواية

الفصل الثالث عشر

(١)

على مقربة من انتهاء عرض المترجم شريف لوثائق صندوقه الأسود... انفرد رئيس الفريق الأممي بمعية أعضائه في جلسة ساخنة مقلقة في قاعة الاجتماعات الجانبية التي اعتاد الفريق الأممي الذي يعمل بمعيته المترجم شريف في مداولاتهم الخاصة... كان الغائب الحاضر الوحيد فيها المترجم شريف العلي... كان غائبًا عن الحضور جسدًا... الحاضر على ألسنتهم ذكراً...

كانت نبرة الحوار بينهم حادة تنم عن معركة إنسانية أو لا إنسانية... فالموازين على ألسنتهم اختلت... هم يرون ما يتصورون ويخطّطون إنسانياً... والواقع يقول إن ما يرومون إليه خلاف ذلك تماماً...

احتدّ الكلام بين الأعضاء... نبرة القناعة؛ قسراً أو رضاً سادت على الموقف... بعض المعارضين - وهم أقلية كالعادة - لاذوا بالصمت حجةً...

طلب الرئيس التصويت...

الجميع صوّت... وإن كانت أصابع بعضهم مرتجفة من أثر
الخوف على ضمائرهم الخاوية...

بالنتيجة الجميع صوّت على ما أَراده رئيسهم؛ فالمرؤوسون دومًا
مغلوبون، ليس في الشرق فحسب، بل حتى في الغرب الذي أدّهم على ذلك...
كلّف الرئيس مجموعة من الأعضاء إلا المقربين منه على إعداد
الملف المطلوب... كان الأعضاء الأقلّ قربًا من سيادة الرئيس على
ريية لا على المستهدف من بينهم، بل على مصيرهم الذي يمكن أن
يكون كمصير مَنْ يحيك الرئيس، ومن لفّ حوله، عليه الدوائر...

انفرط عقد الاجتماع إلا من المكلفين بإعداد الملف... هم
يصغون إلى رئيسهم بدقّة، وحنكة، وكفاية منقطعة النّظير... كفاية لا
يتقنها إلا من اعتاد على قرب الرؤساء...

انسحب الأقلّ قربًا من الجلسة... خطواتهم وئيدة من فرط
قلقهم على مستقبلهم المعلوم المصير؛ إن لم يزدادوا قربًا من الرئيس،
كما يريد هو لا كما يريدون...

تجرأ بعض المنسحبين على الالتفات إلى الخلف... تفاجأوا بنظرة
حادّة من الرئيس جعلتهم يلتفتون إلى سابق خطوهم... واندفعوا
بسرعة خاطفة نحو الباب...

خلا الجوّ للجنة الباقية، هكذا صار اسمها بعد أن كانوا

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

يوصفون بالفريق؛ فالمصالح تهدّ الفرق؛ لِتَكونَ لجأناً تنظر في تلف
مصير بعضهم بعضاً...

امتلات أوراق المكلفين بإعداد الملفّ بما أَراده الرئيس من
خارطة طريق؛ لِزَجّ المعنيّ في مصير رَسَمه هو له...

للمت اللّجنة - التي انسلخت كجلد الأفعى من حميميّة
الفريق - أوراقها، وإصغاءها، وتوجيهات رئيسها، وذهبت إلى غرفة
أشدّ ظلمةً من غرفة اجتماعهم هذه ؛ ليكملوا أوراق ملفّهم المطلوب
من سيادة الرئيس...

وضع الرئيس ساقاً على ساق؛ وهو ينظر بشموخ إلى انتظام لجنته
- المنسخلة من فريقها قبل قليل - في الانسحاب من غرفة الاجتماع
؛ ليدخلوا في غرفة أخرى ؛ وظيفتها ترميم مصير شخص رسموا
مقاساته على أنظارهم لا على حقيقة واقعه...

كان جلوس الرئيس كَبَاقَة شرّ كثيف لا يتقن من الخصال إلا
أرذلها... كان ينظر إلى نفسه على أنّه منقذ؛ والواقع يقول: إنّهُ أركس
ما لا يستحقّ الارتكاس من دون ذنب إلا لأنّه حاول أن يضيء
بمصباحه الفقير جدّاً طويلاً، عريضاً، من الحقيقة المغلفة بظلام عن
عمد من بعض أهلها وأعدائها...

(٢)

في صبيحة يوم لم تكن شمسُه واضحة الضياء، كعادة شمس لندن، أو أيّ دولة أوربية محاذية لبريطانيا، صحا المترجم شريف العلي بمزاج متعكّر من دون سبب مزعج، لم ينهض بيسر عن سريره، بل بقي وقتًا ليس قصيرًا مستلقيًا بلا نعاس عليه، يتصفّح السّقف بلا سبب أو مبرّر... تكرّرت تأوّهاته... ازدادت أنفاسه الضّيقة...

التفت إلى النّافذة بمحاولة خاسرة لكسر حاجز الانزعاج النّفسيّ الذي غزاه؛ ما إن فتح عينيه من نومة كدرة... حاول من دون جدوى أن يقتنص بعض ضياء الشّمس؛ وهو مترّيع في ضحاها...

نهض من دون قناعة إلى جدوى نهوضه... جسده غير مقتنع بترك السرير... ويرفض أن يعود إلى النوم...

دخل المطبخ من دون أن يغسل وجهه، أو يصفّف شعره، مباشرة قاده قدماه إلى إبريق الشاي كي يصنع لنفسه شايًا؛ فلعلّ في سخونته حلًّا لبرودة مزاجه القارصة، المفرطة بالغم...

ثلاثيّة سيرة الجمر -٣- غد الكابوس

وقف قُبالة المغسلة وصفير الإبريق يعلو من سخونة الماء... فتح
صنبور الماء على مضض، وتلمّس الماء بفتور غريب...

قبل أن يتمّ غسل وجهه، وقبل أن تكتملّ فورة غليان الشاي،
رنّ جرس بابه بطريقة زادت - بتكرارها المفرط - انزعاجه...

وعلى أنّها ردة فعل منزعجة؛ ترك المترجم بقايا الصابون على
وجهه؛ ليشعر الطّارق المزعج أنّه جاء في غير أوانه، وفعلاً هو جاء في
غير أوانه كقطف الثمر قبل النضج...

فوجئ بجمع من عناصر الشرطة الدولية بالباب... لم يعتدّ
على هذا المظهر من قبل؛ فهذه الشرطة عادةً تحيط بهم لحمايتهم حين
تجوالهم الدّولي؛ فما تجمهرهم الغريب بباب غرفته ضحّى هذا الصّباح
ذي الغيوم؟...

انتهى حوارهم الصّامت باقتياده بمظهره المزري، ببقايا صابون
وجهه، إلى حيث رسمته له اللجنة المنسلخة من الفريق الأُمّي؛ وبأمر
من الرئيس... إلى حيث يريد الرئيس، فالحقيقة التي يريدونها بلا
ضياء ينبغي أن تبقى معتمدة؛ فهم يتحكّمون بها يريدون...

كلّما يغيب المترجم شريف في ممرّ البناية التي تقبع فيها شقّته،

يزداد صوت غليان ماء الشاي في إبريق... يغيب شريف ويبقى
الإبريق في غليان...

[في انتظار فصل جديد من الحقيقة]

[توقّف الكشف الآن قسراً لا رغبةً]